ذكر خروج أبي إبراهيم إسماعيل بن نوح المنتصر وما جرى بينه وبين أيلك الخان بما وراء النهر وبين صاحب الجيش أبي المظفر نصر بن ناصر الدين بخراسان

كان سبب خروجه أنه لما تمكن أيلك خان من بخارى، قبض على: أبي الحارث المكحول، وعبد الملك، وأبي إبراهيم، وأبي يعقوب بني نوح بن منصور الرضا، وعلى أعمالهم: أبي زكريا، وأبي سليمان، وأبي صالح الغازي، وغيرهم من الأرومة السامانية، وأمر باعتقالهم. ورسم إفراد الإخوة منهم في حجرة على حدة احتياطا لنفسه بتفريق ذات بينهم عن تمكينهم من اقتضاب الحيل، واختلاق الأراجيف، وارتقاب الفرص. واحتال أبو إبراهيم المنتصر للتخلص من معتقله في زي جارية كانت تنتابهم لمطالعة أحوالهم، ومراعاة أوقات أقواتهم، فكانت حاله في الخلاص موافقة لحال الكميت حين استشعر ثياب طلّته، وانسلّ من غمد الاعتقال بمهجته، ثم أنشأ يقول[1]:

خرجتُ خروجَ القِدحِ قدحِ ابنِ مقبلٍ ... على الرَّغمِ من تلكَ النَّوابحِ والمُشلي
علـــيَّ ثيـــابُ الغانيـــاتِ وتحتَهـــا ... صـــريمةُ رأيٍ أشـــبهتْ ســـلّة النصـــل

---

(١) البيت للكميت بن زيد، انظر: الأغاني ١٧/٢٠، والحيوان ٢/٣٦٥.

الكميت بن زيد الأسدي: (٦٠ - ١٢٦ هـ / ٦٨٠ - ٧٤٤ م): وهو الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي أبو المستهل. شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة، اشتهر في العصر الأموي، وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها. ثقة في علمه، منحازاً إلى بني هاشم، كثير المدح لهم، متعصباً للمضرية على القحطانية، وهو من أصحاب الملحمات.

أشهر قصائده (الهاشميات - ط) وهي عدة قصائد في مدح الهاشميين، ترجمت إلى الألمانية.

قال أبو عبيدة: لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت، لكفاهم.

وقال أبو عكرمة الضبي: لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان.

اجتمعت فيه خصال لم تجتمع لشاعر: كان خطيب بني أسد، وفقيه الشيعة، وكان فارساً شجاعاً، سخياً، رامياً لم يكن في قومه أرمى منه. له (الهاشميات).

والبيت مطلع قصيدة طويلة للكميت بن زيد الاسدي مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: مدح بها على بن أبى طالب فورى عنه بذكر النبي صلى الله عليه وسلم خوفا من بنى أمية.

انظر ترجمته في: الشّعر والشّعراء ٣٨٥، والأغاني ١٧/٣ - ٤٤، والمؤتلف والمختلف٢٥٧، ومعجم الشّعراء ٢٣٧، ٢٣٨، والخزانة ١/١٤٤.

واستخفى المنتصر بعد خلاصه عند عجوز من أهل بخارى إلى أن أيس منه الطلب، ثم سار إلى خوارزم كالحسام الغاضب، بل الشهاب الثاقب، متجردا للانتصار، مستعينا بالله على درك الثأر. وتلاحق به من ندّ وعار، وأنجد وغار من بقايا القواد والأجناد السامانية في أطراف خراسان، حتى اجتمع شمله، وكثف خيله ورجله.

وركض أرسلان بالو الحاجب إلى بخارى، فبيّت الخانية بها تحت الملاحف والنمارق، وشغلهم بحقائق السيوف البوارق، عن مجاز الأحلام الطوارق، وقبض على جعفرتكين وعلى سبعة عشر نفسا من أعيان القواد الخانية، وحملهم في وثاق الأسر إلى الجرجانية، وأفلت الباقون بجريعة الأذقان نحو أيلك الخان، فركب أرسلان أكتافهم يحثهم حثّ الشمال قزع الخريف، وطرحهم إلى حدود سمرقند وما يليها مقتفيا آثارهم.

وكاسعا أدبارهم. ووافق بقنطرة كوهك تكين خان في عسكر جرار نائبا عن أيلك في حراسة سمرقند وما يليها، فانتدب لمناجزته، واستعان بالفل وسائر أصحابه على مبارزته، فنصب أرسلان له وجها وقاحا، وأضرم عليه الأرض كفاحا، فولّاه ظهر الإدبار، واتقاه بعوذة الفرار. وغنم أرسلان ومن معه أموالهم، ورمّوا بتلك الأنفال أحوالهم.

وعاد أبو إبراهيم المنتصر عند ذلك إلى بخارى فاستبشر أهلها بمعاده على مراده. وبلغ أيلك الخان خبره فجمع أحابيش الترك، وصمد صمده في العدد الدثر. وكرّ أرسلان بالو راجعا إلى المنتصر، واقتضاه الاحتياط عند ذلك العبور إلى آمل الشط، فوافاها وجباها، وضاقت به وبأهل عسكره، فركب المفازة على سمت أبيورد، فملكها، وسار عنها قاصدا قصد نيسابور وبها صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين، فالتقيا على فضاء بين بغوخك وبشنجة قريتين على أربع فراسخ من نيسابور، وذلك يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وثلثمائة. ودارت عليهما رحى الحرب، يفصلون بالبيض البوارق، ما بين الطلى والعواتق، ويضربون مفارق الهام، ضرب القدار نقيعة القدّام.

ولما اشتدت وطأة الحرب على صحبها، ومرت كأسها على شربها، وتكاثفت جموع أبي إبراهيم المنتصر على أصحاب صاحب الجيش أبي المظفر، اقتضاهم

الاحتياط أن يتحيزوا إلى جانب هراة انتظارا للمدد، واستشرافا لمأمول صنع الله في الغد، فحثوا ظهور الخيل بين ذيول الليل، حتى شابت عليهم لمّته بين حدود بوزجان.

وتمكن المنتصر من نيسابور، وانضم إليه من شذّاذ العسكر الجمع الكثير، والجم الغفير.

وبلغ السلطان يمين الدولة وأمين الملة خبره، فاستركب خيله من غير أن يتربص بنهاره ليله وسار سير الخبب، يطوي الأرض كطي السجل للكتب، حتى انقضّ على نيسابور انقضاض بني الهواء على بنات الماء. ولما تسامع المنتصر بإقباله انحدر إلى إسفرايين في عامة رجاله، وبثّ أصحابه في الرساتيق لجباية أموالها، وإزاحة أطماع حشمه بها، فأزعجه الطلب للحاق بشمس المعالي قابوس بن وشمكير مستصرخا إياه، ومؤملا غوثه وجدواه. فتلقاه بكل ما تمناه، ومهّد له ذراه، وأعطاه حتى أرضاه. وكان مما أمر بحمله إليه صفقة واحدة: عشر دواب بمراكب الذهب، وثلاثون بمراكب الفضة، وثلاثون من العتاق الجياد بالبراقع والجلال، وعشرون بغلة بمراكب الذهب والفضة، وثلاثون أخرى مقرونة بخمسين جملا موقرة أحمالا وأثقالا من البسط النادرة، والفرش الفاخرة، ومن حصر طبرستان، وسائر الطرائف المجموعة في الخزائن بجرجان.

وأضيف إلى ذلك ألف ألف درهم، وثلاثون ألف دينار، ومائة وخمسون تختا من الدبابيج التسترية، والسقلاطونيات العضدية، والحلل الفخرية، والخزوز الطاقية، وسائر الثياب المصرية. وأمر لأهل عسكره بعشرينياتهم معونة لهم على عوارض حاجاتهم.

وأشار على المنتصر بقصد الري، إذ كانت معرضة لقصّادها بتخاذل أهوائها، وتواكل أوليائه، واشتجار الفتن والإحن بين الذائدين عن فنائها، على أن يمده بولديه: دارا ومنوچهر في جيوش الجيل والديلم ووجوه الأكراد والعرب، ليستظهر باستخلاص تلك الولاية، وليكون ما ينويه من معاودة خراسان عن ظهر الكفاية، فقبل الإشارة، وقدّم الاستخارة، وسار حتى خيّم بظاهر الري، فأحس أهلها منه بأم الرّبيق على أريق.

وقاءت الري أفلاذ أكبادها، فأناخوا قبالة المنتصر، ودسّ الكفلاء بتلك الحضرة إلى أرسلان بالو، وأبي القاسم بن سيمجور، وغيرهما من أولياء المنتصر من أطمعهم في مال يحمل إليهم سرا على أن يثنوا عنهم عنان المنتصر بوجه من وجوه اللطائف والحيل، فانخدعوا لتسويلهم، وطمعوا في تأميلهم، وتنصحوا للمنتصر بأن قدر مثلك

ممن يجله ملوك الشرق من آل سامان على جلالة أقدارهم، ونفاسة أخطارهم، ليجل عن مناوأة قوم يدعون فيك قرابة، ويفترضون لك طاعة ومهابة، موالاة لمن يجرّ النار إلى قرصه بالتعويل عليك، ومغزاه أن يحترش الأفعى بيديك فله الغنم أن قدرت، وعليك الغرم إن عجزت، فلفتوا المنتصر عن رأيه، وزينوا له ملك خراسان من ورائه، فارتحل من باب الري يريد دامغان، وانفرد ولدا شمس المعالي عنه، فحبس نجم ذلك التدبير، وانحلّ عقد ذلك التقدير، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

وامتد المنتصر طلقا إلى نيسابور، وبها صاحب الجيش أبو المظفر، فأشفق من زلة القدم كالتي حدثت قبل، فاحتاط بالانحياز إلى بوزجان. ودخل المنتصر نيسابور في شوال سنة إحدى وتسعين وثلثمائة، وبثّ عماله في جباية الأموال، ومطالبة من ظفر بهم من العمال، واستمد صاحب الجيش السلطان يمين الدولة وأمين الملة، فرسم للحاجب الكبير التونتاش والي هراة البدار إليه في معظم جنوده من شجعان الترك وسرعان الهنود، حتى إذا استظهر بذوي الغناء، في حرة الهيجاء، كرّ عائدا إلى نيسابور. وتلقاهم المنتصر بأرسلان بالو، وأبي نصر بن محمود، وأبي القاسم بن سيمجور، فالتقوا على حرب تحطمت فيها الصفاح المشهورة، وتقصدت الرماح المطرورة، وعريت عندها الكواكب المستورة، ثم شاعت الهزيمة في السامانية، فولّوا على أدبارهم نفورا، وكان أمر الله قدرا مقدورا. ودخل صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين نيسابور، وقد زينت له كالهدي على زوجها الكفي، وأقيمت له النثارات كما تتهاوى النجوم السائرة، وتتهادى الثلوج المتطايرة.

وركب المنتصر سمت أبيورد والطلب على أثره حتى وصل إلى جرجان، ولما تسامع شمس المعالي بنبئه، رماه بزهاء ألفين من أنجاد الأكراد، فألجئوه إلى الارتحال، وآيسوه من طلب المحال، فكرّ على أدراجه تائها في الغيّ، وإنما ترك الرأي بظاهر الريّ.

وقد كان المنتصر يحقد على أرسلان بالو تسحّبه عليه، واشتطاطه في المطالب بين يديه، ومنازعته الرأي فيما ينحوه، ومراجعته القول في كل ما يفوه به فوه. وانضاف إلى ذلك اتهامه إياه بالتخاذل في الحرب التي جرت، وأنه انهزم فيها عن وجه صاحب

الجيش أبي المظفر لنفاسته على أبي القاسم بن سيمجور مكانته من اختصاصه وإيثاره وغيرته على الشركة الواقعة له في محله ومقداره، فحمله ما احتساه من ماء الكرب على التشفي بإراقة دمه، والاسترواح إلى انتهاك روحه، ففتك به فتكة أنست فتكات الإسلام، وشفت نفسه من الداء العقام. وتجمع أهل عسكره لإنكار ما فعل، وأنّى لهم ذلك وقد سبق السيف العذل.

وقام أبو القاسم علي بن سيمجور مصانعا لهم عن المنتصر بلسان المعتذر، حتى خمد التهاجم، وسكن هيجهم واضطرابهم، وتآمروا بينهم على قصد سرخس للاستظهار بزعيم أهلها المعروف كان أبوه بالفقيه إذ كان قد رغّب المنتصر في إرفاده وإنجاده وإيثاره بعدته وعتاده، فركبوا المسافة إليها على طريق أبيورد حتى وردوها وجبوا أموالها، وارتاشوا بما سمح لهم الزعيم بها.

وحين علم صاحب الجيش باجتماعهم على مضغ الأباطيل بينهم، دلف إليهم من نيسابور في سراة الكماة لطردهم عن شريعة الطمع، وإزعاجهم عن حضانة الأمل.

ووصل السير بالسّرى حتى أشرف على سرخس في الهيئة المنشورة، والهيبة الموفورة.

وبرز المنتصر إلى ظاهرها، فخيم بإزائه، واستعد للقائه. وتجايشا للقتال، فاستكّ سمع الهواء من قرع الحديد بالحديد، ورويت صدور المواضي من موارد الوريد، وبلغ كل من الفريقين غاية الإمكان في منازلة الأقران، ومناوشة الضراب والطعان، مجاحشة عن خيوط الرقاب، وتفاديا عن سوء الذكر على تناسخ الأحقاب، غير أن قضاء الله أغلب، وأمره أنفذ، وله الحكم في تبديل الأبدال، وتصريف الأحوال، ونقل الأملاك من وال إلى وال.

وهبت لصاحب الجيش أبي المظفر قبول الإقبال، فتمزق مصف المنتصر عن هزمى عوابس الوجوه، وجرحى بأنياب المكروه. ولم ينشب صاحب الجيش أن أتاه بعض العرب بأبي القاسم علي بن محمد بن سيمجور في قلادة من الوهق، على بقية من الرمق. وأردف بالتونتاش الحاجب، وكان المنتصر يراه جلدة ما بين العين والحاجب. وانضمت حبالة الأسر على معظم ذلك العسكر، فحملوا إلى غزنة في الأصفاد مقرّنين.

وسار المنتصر سير المضطر لا يدري وزرا غير اعتساف المسالك، وارتكاب المهالك، على جملة لا يتميز فيها المملوك من المالك.

وقفل صاحب الجيش أبو المظفر وقد أعلى الله كعبه، ورفع قدره، وأطعمه نصره، وأطار بين الخافقين ذكره.

وأنشدني أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي لنفسه فيه يذكر ما أتيح له من هذا الفتح الرائع منظره، الشائع في الآفاق خبره[1]: [الطويل]

تبلَّجَتِ الأيامُ عن غُرَّةِ الدَّهْرِ ... وحلّت بأهل البغي قاصمةُ الظهر
وولى بنو الإدبار أدبارهم وقد ... تحكّم فيهم صاحب الدهر بالقهر
وقد جاء نصر الله والفتح مقبلا ... إلى الملك المنصور سيدنا نصر
غياث الورى شمس الزمان وبدره ... ومن هو بالعلياء أولى أولي الأمر
فيالك من فتح غدا زينة العلى ... وواسطة الدنيا وفائدة العصر
أبى الله إلا نصر نصر ورفعه ... على قمة العيّوق أو هامة البدر
وملّكه صدر السرير كأنه ... لنا فلك بالخير أو ضده يجري
وخوّله دون الملوك محاسنا ... تبرّ على الشمس المنيرة والقطر
إذا ذكرت فاح النديّ بذكرها ... كما فاح أذكى النّد في وهج الجمر
فتى السن كهل الحلم والرأي والحجا ... يعمّ بني الآمال بالنائل الغمر
له همة لما حسبت علوّها ... حسبت الثريا في الثرى أبدا تسري
غدا راعيا للمسلمين وناصرا ... له الله راع قد تكفل بالنصر
ألا أيها الملك الذي ترك العدى ... عباديد بين القتل والكسر والأسر
قدمت قدوم الغيث أيمن مقدم ... فحليت وجه الدهر بالحسن والبشر
ألست ترى كتب الربيع ورسله ... يقولون ها ذاك الربيع على الإثر
نسيم نسيب للحياة بلطفه ... يجر فويق الأرض أردية العطر
وترب بأنفاس الربيع معنبر ... فيالك من طيب ويالك من نشر
وغيم يحاكي راحتيك كأنه ... على المسك والكافور يهطل بالخمر

---

(١) انظر: الديوان ١/٧٩.

فـروّح بشـرب الـراح روحـك إنهـا لفي تعب من وقعة البيض والسمر
ودم لا قتناء الملك في أكمل المنى وفي أرفع العليا وفي أطول العمر

وأنشدني أبو سعد بن دوست[1] لنفسه فيه:

للأميـر المظفـر العـالم العـا دل فينـا أبـي المظفـر نصـر
كـرم فـي شـجاعة وسـخاء فـي وفـاء ودولـة مـع نصـر
ومعـال لـو رامهـا بختنصـر يـوم فخـر أعيـت علـى بختنصـر
فبـه نقطـع الخطـوب ونفـري وبـه نـدفع الكـروب ونصـري

وانتبذ الركض بالمنتصر إلى محال الأتراك الغزّية، ولهم صغو إلى الدولة السامانية، فأخذتهم المذمة من خذلانه، وحركتهم الحمية لعونه على شأنه.

وتذاكروا بينهم شرف آل سامان وما تعرّفوه قديمًا من بركات ذلك البيت القديم، والشرف العميم. وسار بهم مصعدا حتى لحق بأيلك الخان وذلك في شوال سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة. وعندها دلف أيلك للانتصار من المنتصر في جيوش الترك، يستعر في طلب الثأر استعار النار، حتى أناخ بحدود سمرقند.

وتناذر الغزّية بإقدامه، وتآمروا بينهم على بياته، فتجمعوا للركض عليه، فحثّوا الخيل تحت ظلام الليل حثّا كاد لا تتنفس الأرض بوطء أقدامها، ولا تشعر النجوم بأشخاص ألويتها وأعلامها، حتى أوقعوا به وانتهبوا جلّ سواده، وقبضوا على جلّة قوّاده، وانقلبوا بما غنموه إلى أوطانهم عند حصول البغية، فاستأثروا على المنتصر بالأسرى طمعا في الفدية. ثم بلغ المنتصر تنازعهم الأمر بينهم في موالاتهم أيلك عليه، وإفراجهم عن الأسرى تقربا إليه. فرابه ذلك من أمرهم ريبة لم تأخذه الأرض معها بقرار، ولم تكتحل عينه عندها بغرار؛ فاختار من جريدته قرابة سبعمائة رجل ركبانا ورجالا، خفافا وثقالا، وطاف على المعابر فإذا النهر جامد، وآمل الشط في البعد آمد، ففرشوا النهر بأتبان الأرز حتى أمكنهم من العبور.

---

(١) أبو سعد عبد الرحمن بن محمد بن دوست: من أعيان الفضلاء بنيسابور وأفرادهم يجمع من الفقه والأدب بين التمر والرطب ومن النظم والنثر بين الياقوت والدر وشعره كثير الملح والنكت حسن الديباجة كأنه يصدر عن طباع المفلقين من شعراء العراق. [انظر: يتيمة الدهر ٤/٤٩١]

وتبعه الطلب فمنعهم خطر المعبر من قصد المنتصر، وأرسل هو عند قراره بآمل رسولا إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملّة يذكّره بحقوق سلفه عليه، واشتداد الأمر في انثيال العداة عليه، وأنه له بحيث يرتبه فيه طاعة له، وإخلاصا في هواه. وأظهر الانقطاع إلى كنف قبوله وإشباله، والافتقار إلى معونته بماله ورجاله. وامتد من آمل الشط إلى سواد مرو احتراسا من معرّة الترك في العبور على الأطواف والفلك.

وأرسل إلى أبي جعفر المعروف بخواهرزاده وكان رجلا من جملة الرعاع رفعه الزمان في دولة آل سامان، يستميحه المعونة بما يفضل عن سعة يده من مال وسلاح. فردّ الرسول على غير وجه الحرية والارتياح لحكم الإنسانية، ولم يرض بالردّ حتى خرج إليه مقاتلا، وبالجفاء مقابلا. فحمل أصحاب المنتصر عليه حملة فرّقت جمعه جملة.

وتسدّى مسافة أبيورد حتى وافاها في شهور سنة أربع وتسعين وثلثمائة. وأوجب السلطان إكرام رسوله، وتحقيق مأموله، وصلته بصدر من المال يجبر خلّته.

وخاطب ابن خواهرزاده بخدمته، وتقمّن مرضاته، وترك الانحراف عن مراده، فاضطره الأمر إلى طاعته، وتقديم الاعتذار من مخالفته، حين شاعت سبّة البخل عليه، واستطارت شادخة اللؤم بخديه. وقد كان أبو نصر نصر بن محمود الحاجب لما تسامع بقدوم راية المنتصر مالأه على صاحبه، وأظهر الانقطاع إلى جانبه، وأقام له الخطبة بنسا مظهرا طاعته، ومستنفذا في نصرتة جهده واستطاعته.

ولما أحس أهل نسا برأي أبي نصر في اتباع راية الخلاف، أشفقوا على أنفسهم من عاقبة الاتهام بموالاته، والاشتراك في جناياته. فكاتبوا خوارزمشاه مستمدين عليه، فأنهض أبو الفضل الحاجب أحد أعيان ذلك الباب الرفيع، لإزالة شرّه، وكفاية أمره.

ومال ابن محمود إلى المنتصر، فتضافرت العدّة، وتوافرت العدّة. وصدر إلى خبوشان من رستاق أستوا. وناهضهم أبو الفضل في رجال خوارزم، فاتفق التقاؤهم على الحرب ليلا بمرأى من النجوم الشوابك، حيث لا يدري الضارب مضروبه، ولا يبصر الراكب مركوبه. واختلط الفارس بالراجل، والتارس بالنابل.

وتضاربوا ما بين الشّوى والمقاتل، وتطاعنوا سلكى مخلوجة كرّك لأمين على نابل.

وتصدّع شمل الفريقين قبل أن صافح الليل صباحه، ونفض النجم على الغرب وشاحه، فلم يشعر أحد بما جنته يد الظلام على كماة ذلك الجيش اللهام، حتى استفاض ضوء النهار، فإذا ابن محمود قتيل، وابن حسام الدولة أبي العباس تاش إلى جنبه صريع.

وتفرق الباقون عباديد بين أقطار المهامه والبيد.

ووقع المنتصر إلى إسفرايين، فمانعه أهلها حذر المحنة، وخيفة الهرج والفتنة، فانثنى على أدراجه في شرذمة من أصحابه يقطع الأرض طولا وعرضا، حتى انتهى إلى بعض حدود سرخس، فأقام هنالك ريثما تلاحق به الفلّ. وسار حتى عبر النهر من ساحل قطنان. وبرز شحنة بخارى في طلبه، وسدوا عليه وجوه مهربه، فركب عزيمة الرجال في ثبات القدم، وثبت بعضهم للبعض جلادا بالدبابيس والحراب، وإغمادا للسيوف في قراب الرقاب. فجدّ المنتصر في الأمر واشتد، ونجا برأسه ولم يكد. وصار القوم إلى دبوسية من الصغد مستنجدين من بها من العمال، وتفاريق الرجال. ووقع المنتصر إلى ثغر النور من بخارى وركض منها عليهم ركضة اقتسمتهم بين اجتياح واحتناك واصطلام واجتثاث، ومالأه المعروف بابن علم دار رئيس الفتيان بسمرقند، فأتاه في ثلاثة آلاف رجل، وتقرّب إليه مشايخ أهلها بثلثمائة غلمة، على سبيل برّ وخدمة.

ووصلوا بها كرامات تضاهيها، ونثارات تدل على إخلاصهم فيها، وتوافى إليه الغزّية فاشتعلت جذوته، وتراجعت قوته.

ولما سمع أيلك الخان باحتداد شوكته، واشتداد وطأته، زحف إليه في أحلاس الذكور من ديارات الترك. واشتبكت الحرب بينهم بقرية بورنمذ من حدود سمرقند، حتى نفدت النبال، وتحطمت النصال، وتكسرت السمر الطوال. وخان الخان مقامه، وانفضّ عنه أقوامه، فاستقفاه الغزيّة في طلاب الأسلاب، حتى بردت أيديهم بالسبايا والنهاب، والغنائم الرغاب، وذلك في شعبان سنة أربع وتسعين وثلثمائة.

وعاود الخان أرض الترك، فضم النشر، ونادى فحشر، ثم كرّ على ثأره، وبث على المنتصر شرر ناره. ووافق إقباله تراجع الغزّية إلى أوطانهم بما نهبوه، على عادتهم في كل ما غنموه. واستأنف الحرب على فضاء بين قريتي ديزك وخاوس من أشرو سنة.

واستأمن المعروف كان بالحسن بن طاق إلى الخان في زهاء خمسة آلاف رجل من رفقائه عند اتقاد جمرات المصاع، واشتداد زفرات القراع. واضطر المنتصر إلى الانهزام. وحكّم الخان في أهل عسكره سيوف الانتقام، حتى رويت الأرض من دمائهم، وشبعت النسور من أشلائهم.

وسار المنتصر إلى شط جيحون فعبر على الرّمث لعدم السفائن، وخلو المعابر. ومضى إلى أندخوذ من أرض الجوزجان، محترسا من ركضة الخان، وأمر باستياق الدواب الراعية بها واقتسامها بين أهل جملته، وركب المفازة إلى قنطرة زاغول.

ولما بلغ السلطان يمين الدولة وأمين الملة خبره، أسرع الانحدار إلى بلخ لإعجاله عن تفاقم أمره واستفحاله. واتبعه بفريغون بن محمد في أربعين قائدًا من قواده، لطرد سواده، وحصد فساده، فأعجزهم المنتصر وسار إلى جنابذ من قهستان ضرورة، إذا كانت جيوب الآفاق عليه مزرورة، فحيث أمّ شهرت عليه السيوف، وأنىّ ألمّ أحدقت به الحتوف. ودلف إليه صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين في طغانجق والي سرخس، وأرسلان الجاذب والي طوس، يحثّون الظهور في الطلب، وينتزفون علالتها بين الركض والخبب، ففاتهم إلى جومند، ومنها إلى بسطام، فرماه شمس المعالي قابوس بن وشمكير بزهاء ألفين من الأكراد الشاهجانية، فأزعجوه عنها إلى بيار راجعا باللوم على من لقّنه الانحدار.

ولما ضاقت عليه المذاهب، وأحاطت به المعاطب، بادر بالسير إلى كورة نسا بدار من لا يمكث بدار، ولا يوطىء الأرض جنب قرار. وتلقاه ابن سرخك الساماني بكتاب يزيّن له الانفتال إليه لمضامّته على أيلك الخان مواربة ومواراة، ومطابقة للخان عليه ومواطأة، فنازعته نفسه تقديم إجابته طمعا في وفائه، وتأميلا لعونه على ذمائه[1]، فركب الخطار وسار حتى إذا بلغ بئر حمّاد من مفازة آمل، سبقه خيله إلى الشط، فوافق ذلك جمود جيحون، فاغتنموا مفارقته خلاصا مما منوا به من مكابدة الأسفار، وعدم الاستقرار، ووصل سهر الليل بدأب النهار. وتشاوروا في العبور إلى سليمان الحاجب، وصافي حاجبي أيلك الخان، فعبروا إليهما، وعرّفوهما أن الساماني بالقرب، وأن المحن قد طحطحته، والحوادث قد طحنته. فهو خلسة الطامع، ونهزة الطالب، وطعمة الأنياب

(١) الذّماء: بقية الروح في المذبوح. [انظر: لسان العرب (ذمي)].

والمخالب، فلم يشعر أبو إبراهيم المنتصر إلّا بالخيل مطلة عليه، فطاردهم ساعة ثم ولّاهم ظهر الفرار، وقبض على أخويه وخاصتهما برباط بشرى، وحملوا إلى أوزكند أسرى، فأحلّ المنتصر هربه حلة ابن بهيج الأعرابي من جملة العرب السيارة في تلك المفازة ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا﴾ [الأنفال:٤٢].

وكان المعروف بماه روي بندارا من جهة السلطان يمين الدولة وأمين الملة فيهم، وقد أوصاهم بالقعود له بكل مرصد، وإذكاء العيون عليه عند كل مصدر ومورد، فلما لبس الليل جلدة الغبش، وعرض على النجوم جيش الحبش، وثب أهل تلك الحلة على المنتصر جهلا وغباوة، وقساوة وشقاوة، وأخفروا حق مقدمه، وأحلّوا للأرض حرام دمه، فكأنما عناه أبو تمام حيث يقول[1]: [الطويل]

فتى مات بين الطعان والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلّت عليه القنا السمر
فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة ... غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
عليك سلام الله وقفا فإنني ... رأيت الكريم الحرّ ليس له عمر

ثم نقل قالبه إلى قرية ما يمرغ من قرى روذبار زم، ودفن بها في شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وثلثمائة.

وبلغ السلطان يمين الدولة وأمين الملة خبره، فأمر بالقبض على ماه روي بندار، وإذاقته حر الإنكار. وشنّ الغارة على حلة ابن بهيج الأعرابي خاصة، وعلى سائر العرب السيّارة عامة. وصارت جمرة آل سامان رمادا تذروه الرياح، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

(١) انظر: الديوان ١/٤٩٤، وجوهر الكنز لابن الأثير ١/٣٢٨، والمثل السائر ٢/٣٥٥.

ذكر الأمراء السامانية ومقادير أيامهم من حيث نجمت دولتهم إلى أن ورثها السلطان يمين الدولة وأمين الملة

كان ملك آل سامان بما وراء النهر وسائر بلاد خراسان بما ينضاف إليها في الوقت بعد الوقت من كور: سجستان وكرمان وجرجان وطبرستان والري إلى حدود أصفهان مائة سنة وسنتين اثنتين، وستة أشهر، وعشرة أيام. فأولهم أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد وهو الذي قبض على عمرو بن الليث بناحية بلخ يوم الثلاثاء النصف من شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائتين، وولي خراسان ثماني سنين، ومضى لسبيله ببخارى ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة خمس وتسعين ومائتين منعوتا بالعدل والرأفة، موسوما بطاعة الخلافة.

وقام بعده أبو نصر أحمد بن إسماعيل، فملك ست سنين وثلاثة أشهر. وفتك به نفر من غلمانه بفربر ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة. وكان مقتديا بأبيه في إيثار النصفة، واختيار الأحدوثة الحسنة اقتداء الأبناء بالآباء في اختيار أفضل السنن، واتباع أحمد السنن إلى أن طوت الدنيا صحائف أيامهم كعادتها في الذين خلوا من قبل، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾ [الأحزاب:٦٢].

وسدّ مسدّ الشهيد أبو الحسن نصر بن أحمد، فملك ثلاثين سنة. رفيع النجاد، قوي العماد، وريّ الزناد، زكي المراد. وتوفي ببخارى ليلة الخميس لثلاث بقين من رجب سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة.

وتلاه وارث الملك نوح بن نصر وهو الحميد، فملك اثنتي عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة أيام. وتوفي ببخارى يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة.

وانتصب منصبه عبد الملك بن نوح، فملك سبع سنين وستة أشهر وأحد عشر يوما. وعثرت به دابته فسقط إلى الأرض سقطة حمل منها ميتا، وذلك عشيّ يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلثمائة.

وخلفه في الولاية أخوه منصور بن نوح السديد خمس عشرة سنة وتسعة أشهر، وتوفي ببخارى يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وستين وثلثمائة.

وولي أمره نوح بن منصور إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر. وتوفي يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة سبع وثمانين وثلثمائة.

وملك بعده ولده أبو الحارث منصور بن نوح سنة وسبعة أشهر، فاعتقله بكتوزون بسرخس يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر، سنة تسع وثمانين وثلثمائة.

وبويع أخوه عبد الملك بن نوح فما استقرت قدمه في الولاية حتى خرّت على يد السلطان يمين الدولة وأمين الملة دعامته، وشالت نعامته، فطار إلى بخارى. وقبض أيلك الخان عليه، وانتزع ولايتها من يديه، فكانت مدة أمره ثمانية أشهر وسبعة عشر يوما.

ثم أخوه المنتصر أبو إبراهيم إسماعيل بن نوح. وذلك حدثان ما ولي السلطان كور خراسان. وأقبل بعد ذلك يزداد في أسباب العلى جدّه وجدّه، ويتضاعف في رقاب الأعداء حدّه، فما يفترّ له شهر إلا عن ثغر مفتوح، وصنع ممنوح، وذكر على هامات الأعواد مرفوع، وباب إلى قضاء المنى والآمال مشروع.

openkanal.com

ذكر الأحوال التي جمعت للأمير ناصر الدين سبكتكين وخلف بن أحمد والي سجستان من خلاف مرّة ووفاق أخرى، وما جرى بعد ذلك من الطوائل والترات التي ثنت عنان السلطان يمين الدولة وأمين الملة إليه، وعطفت به إلى انتزاع الملك من يديه، وما جرى خلال ذلك من وقائعه في الهند إلى أن استتب له ما أراد في أمره بعون الله ونصره

قد سبق في أول هذا الكتاب ذكر الأمير خلف بن أحمد فيما رآه السديد منصور بن نوح من ردّه إلى بيته، وإظهاره على خصمه إلى أن تهاوت رجوم الفتن بخراسان، ففرّغه اشتغال ولاتها بما دهاهم منها للاستجمام والاتداع، والاستظهار بما تخرجه له أرض سجستان من صنوف الارتفاع، حتى اتسع نطاق همّته لطلب الفضول، ومنازعة القروم والفحول.

ولما تصدى الأمير ناصر الدين سبكتكين لمواقعة ملك الهند حين تورد حدود الإسلام على ما نطق بشرحه صدر هذا الكتاب، اغتنم خلف بن أحمد انتقاض بست عن الحفظة، وخلوها عن الشحنة، فأسرى إليها من اقتاض بيضتها، واقتض عذرتها، وحرّف كلمة الدعوة عنها، وغمس يده في أموالها فجباها، وجمعها فأوعاها. فلما أفلج الله ناصر الدين على الكافر اللعين، عطف العنان إلى بست ممتعضا من غدره، محتفظا من سوء حفاظه، فاتقاه أصحاب خلف بن أحمد بظهور العار، وأعقاب الإدبار والصغار. وهمّ ناصر الدين سبكتكين بمناهضته، واستخار الله تعالى في مناجزته، فأرسل إليه خلف من يتأوّل عليه في ذلك البعث محافظته على حكم الموالاة في حفظ ولايته، ويتضمن تصحيح ما صار في جبايته، ويتبرع بزيادة تقوم مقام الأرش عن جنايته، تفاديا عن ثقل وطأته على أعماله، وتصونا عن عورة الافتضاح في قتاله. فتغابى ناصر الدين عن شر غدره، كفّا ليد الاقتدار، واكتفاء منه بذلّ الاعتذار، فكان مثله في ذلك كما قال أبو تمام[1]: [الكامل]

لـيس الغبـيُّ بسـيّدٍ فـي قَوْمِـه لكـنْ سـيّدَ قَوْمِـهِ المُتَغَـابِي

(١) انظر: الديوان ١/٢٨، وزهر الأداب ١/٨٤، وجوهر الكنز ١/٣٤٦.

ثم طالبه بتصحيح المال حتى أداّه، وارتهن به بعض رضاه، فكانت الحال بينهما من بعد قائمة على جملة المسالمة، إلى أن حدث من أمر أبي علي بن سيمجور في الجولة التي اتفقت له بباب نيسابور، وما تقدم شرحه، فأظهر تقربا إلى ناصر الدين بمساعدته على خصمه، ومرافدته بنفسه، وسائر أهل جملته، امتنانا عليه بظاهر المظاهرة، وإضمارا للتشفي من أبي علي بمعونته الحاضرة، وقوته الباهرة، إذ كان قد وتره بقصد حصاره، وغزوه في عقر داره، واقتساره بسيوف أنصاره.

وصحبه إلى بوشنج في جميع أشياعه وأتباعه، ثم خلفه بها ناصر الدين سبكتكين صيانة له عن كلفة السفر، وإبقاء عليه من خطة الخطر. وسار إلى طوس، لمواقعة أبي علي، وطلب الثأر المنيم عنده، حتى إذا طرده، ونفض عن شغل تلك الحرب يده، ردّ إلى خلف بن أحمد أصحابه مثقلين بالنعم الباهرة، وموشحين بالخلع الفاخرة، تقدمهم المراكب والجنائب، وتردفهم النجائب والرغائب[1]:

فعادوا فأثنوا بالذي كان أهله ولو سكتوا أثنت عليه الحقائب

فصفت لذلك شريعة الحال بينهما عن قذى المواراة، وتجلّت عن عرمض المدامجة والمداجاة، إلى أن عبر الأمير ناصر الدين سبكتكين النهر إلى ما ورائه، لمدافعة أيلك الخان عن ولاية الرضا برفق المناصحة، أو خرق المكافحة. ثم اقتضته صورة الحال مسامحته ببعض تلك البلاد، على أن يسلم له سائرها، ويأمن عنت العيث باديها وحاضرها.

وترامت إليه أثناء ذلك مكاتبة خلف بن أحمد أيلك الخان، مرهفا من غربه، ومغريا إياه بحربه، طمعا في بست ونواحيها، وغزنة وما يليها. وانضافت إليه بلاغات وقوارص برقت له من جانبه في أمر أبي علي، وإظهار الندامة على ما سبق من عونه عليه، والإفصاح على رؤوس الأشهاد، معرضا بأن اجتياح الملوك شؤم، واستباحة البيوتات لؤم، وضعف في الرأي معلوم.

فطار الغضب بناصر الدين كل مطار، وحدثته نخوة الاقتدار بالبدار إلى أرض سجستان، لإطفاء الغليل، وشفاء الداء الدخيل. فثناه كاتبه أبو الفتح علي بن محمد البستي عما نواه بالقول الرفيق، والرأي المؤيد بالتوفيق، ورشّ ماء التلطف على ذلك

(١) انظر: ديوان المعاني ٥١/١.

الحريق. وأراه أن بعض البلاغات زور، وأن القابل كالقائل مأخوذ بها موزور. وأن قلوب الرجال وحوش نافرة، وطيور في بحور الجو سابحة، فما يستمكن منها إلا بإعمال الحيل في نصب الحبائل، وتمكين الجوارح، ورمي البنادق، وبث الحبوب والمطاعم، ثم لا شيء أيسر من إفلاتها عن حبالة القانص، وإرسالها من شرك الصائد، كذلك لا تصاد القلوب إلّا بأشراك الصنائع والعواطف، ولا تقاد إلا بأزمة الأيادي والعوارق، ولا تستفاد إلا بابتذال التوالد والطوارف. ثم الكلمة الجافية تهيج وادعها، وتطيّر واقعها، وتكدّر عليها مشارعها. وتلا عليه قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]. ثم فسرها حتى نزل عن ظهر التعجّل إلى أرض التمهّل.

وأنشدني أبو الفتح البستي في شرح ما دار بينه وبين ناصر الدين لنفسه:

إذا شئت أن تصطاد حب أخي لبّ ... وتملك منه حوزة القلب والخلب
فأشركه في الخير الذي قد رزقته ... وأدخله بالإحسان في شرك الحب
ألم تر طير الجو تهوي مسفة ... لحبّ كقطر من ذرى الجو منصبّ
كذلك لا يصطاد ذو الرأي والحجى ... محبات حبات القلوب بلا حب

وكتب خلف بن أحمد بعد ذلك متنصلا عما عزي إليه، ومتبرئا مما نقم منه، فعفى ناصر الدين عما حكّ في صدره من أمره، وأغمض له عما امتاحه من قليب قلبه، وغدير غدره، وثبت باقي عمره على مداراته وملاطفته إلى أن أتاه اليقين من ربه، فانتقل إلى جوار رحمته وعفوه.

وبلغ السلطان يمين الدولة وأمين الملّة حلّه حبوة الزماتة، بإظهار الشماتة، فاستنشد قول القائل:

قل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تجهز لأخرى مثلها فكان قد

ثم أسرّها في نفسه مرتقبا لميقات الفرصة في الإيقاع به، والاستشفاء منه، إلى أن ورث ملك خراسان نقي الأطراف عن غبرات الخلاف، سليم الآفاق عن غبرات الشقاق.

وقد كان خلف بن أحمد عند قيام السلطان باستصفاء المملكة قد بعث ابنه طاهر إلى قهستان فملكها، ثم عدل عنها إلى بوشنج فاستولى عليها. وكانت هراة وبوشنج

برسم بغراجق أخي ناصر الدين، فلما وضع الله عن السلطان أوزار تلك الملاحم، أتاه عمه يستأذنه في طرد المتغلّب عن ولايته، وفلّ ما جدّ من حدّ نكايته. فأذن له فيه، وسار حتى إذا شارف بوشنج، تلقاه طاهر بن خلف بمن والاه من العديد تحت الحديد، فتناوشا الحرب قدّا للهام من خطوط المفارق، وقطا للأجسام من خصور المناطق، واستقاء للأرواح بأرشية الرماح، واختلاء للرؤوس بسيوف كسيوف الروس، ثم حمل بعضهم على بعض، فذهبت الميامن بالمياسر، والمياسر بالميامن. وانفلّ طاهر من بين يديه هزيما، واتبعه بغراجق يحث منه ظليما.

وقد كان بغراجق قبل أن شمّر للحرب أصاب كؤوسا نام عن سورتها طرف الحجى، وكدرت عليه سريعة الرجاء، ليستيقظ بها أعين الطعن والضرب. فتضافر عليه ناران من كأس وبأس، حتى غفل بهما عن وثيقة التحزّم، وذهل معهما عن بصيرة التحفّظ والتحرّز، فغرّر بنفسه في اتباع خصمه اغترارا بخيال سكره، فلم يشعر إلا بطاهر ابن خلف قد كرّ عليه بضربة أقعصته في مكانه قتيلا. ونزل للوقت إليه من قطف علاوة أخدعيه، واقتسمت الهزيمة كلا الفريقين، فلم يعرف القاتل من المقتول، ولا الغالب من المغلوب، ولا السالب من المسلوب، خلا ابن خلف، فإنه قفى آثار فلّه، بمن ردّهم إلى محله.

وورد الناعي على السلطان، فناله من الغمّ بفقد العمّ، ما ينال الوالد لفقد واحده، والولد لافتقاد صنو والده، واستدل بما اتفق لابن خلف على أحداق الشقاء به وبأبيه، وإطباق البلاء عليه وعلى من يليه، وحدس أن البقرة تبحث عن المدية بروقيها، والنملة يقضي عليها نبات جناحيها، ولو عقل الفراش لما عشا ما عاش إلى ضوء نار ولا تهافت في مصرع بوار:

أسارت الفرس في أخبارها مثلا ... وللأعاجم في أيامها مثل
قالوا إذا جمل حانت منيّته ... أطاف بالبئر حتى يهلك الجمل

وزحف السلطان في شهور سنة تسعين وثلثمائة إلى خلف بن أحمد وهو محتجز بحصار اصبهبذ- قلعة بينها وبين مجرى النجوم قاب قوسين، بل قيد سهمين، تحور عن مراماتها الأبصار، وتحار دون مساماتها الأطيار- فحاصره بها ممنوعا عن فسحة الاختيار، ممنوا بشدة الاضطرار، مفجوعا براحة القرار، ولذة الغرار، حتى نخب الروع

روعه، وودّع الروح روحه، فاستشعر البخوع والطاعة، وأظهر الخشوع والضراعة، وسأل سؤال مسكين مستكين أن ينفّس عن خناقه، ويرخي من حبل إرهاقه، على أن يفتدي بمائة ألف دينار، وبما يليق بها من خدمة ونثار، وتحف ومبار. فأجابه السلطان إلى ما استدعاه، ووكل به من اقتضى المال حتى استوفاه، وغادره كما هو في إسار الحصار، وخناق الوثاق، وفي نفسه قصد سجستان، لكنه أحب أن يجعل غزوة في الهند مقدمة لما توخّاه، وصدقة بين يدي نجواه، تبركا بما يجري على يديه من ارتفاع راية الدين، واتساع ساحة اليقين، وإنارة كلمة الصدق، وإغارة قوة الحق.

فتوغل بلاد الهند متوكلا على الله الذي هداه بنوره، وقضى له بالعز في مقدوره، وبالنّجح في تصاريف أموره، حتى انتهى إلى مدينة پرشور، فخيّم بظاهرها. وبلغه اجتراء عدو الله چيبال ملك الهند على لقائه، واستعجاله القضاء بمجاورة فنائه، فاستعرض الخيول من أبناء جريدته، وسائر الغزاة المطوعة في جملته. واختار للجهاد خمسة عشر ألف عنان من أعيان الرجال، وقروم الأبطال. وحظر أن يختلط بهم من ردّه الاختيار، وبهرجة الانتقاد، حتى إذا خلص عددهم على الانتخاب، واجتلاهم كجنّان الصرائم أو أسود الغاب. دلف بهم إلى قتال الهجين اللعين بقلوب كالهضاب ثابتة، وفروع صبر على دوح الإخلاص نابتة. وأقبل الكافر الفاجر في اثني عشر ألف فارس، وثلاثين ألف راجل، وثلثمائة فيل تئن الأرض من وطء أطرافها، وتخفّ من ثقل أخفافها، حتى أناخ قبالة السلطان متطاولا بعدده، ومطاولا بقوة باعه ويده، يظن أن كثرة الجموع تطوي كتاب الله طيا، وتغني من أمر الله شيئا، ولو درس الجاهل كتاب الله، لقرأ: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وارتزّ الكافر بمكانه جانحًا إلى المطاولة، متحرّزا بالمدافعة والمراوغة، انتظارا لمن وراءه من أوشاب الجيوش، وأوباش القبائل والشعوب، فأعجله السلطان عمّا حكم به من تقديم المطاولة، وتأخير المقابلة، وبسط عليه أيدي أولياء الله، فأوسعوهم حربا ونهبا، ومشقا ورشقا، وحزّا ووخزا، وحتّا وسحتا، فاضطر إلى الدفاع، وصلي نار القراع، فاصطفت عند ذلك الخيول، وخفقت الطبول، وزحفت الفيول، وأقبل بعضهم على بعض يصول. وترامت النبال على الخصل ترامي ولدان الأصائل بالخشل، وتلألأت متون القواضب، تلألؤ برق الغيم جنح الغياهب، وفارت ينابيع الدماء كما فاضت

مجاديح الأنواء. وتكاثر أولياء الله على جماهير المدابير، يؤزّونهم أزّا، ويحثونهم رقصا وجمزا، فلم ينتصف النهار إلا بانتصاف المسلمين من أعداء الله المشركين، وحكّموا السيوف في زهاء خمسة آلاف رجل، فبسطوهم على العراء، وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهواء، وجدل على صعيد المعترك خمسة عشر فيلا مغروزات العراقيب بأطراف النشاشيب، محزوزات الخراطيم بأسياف النهاميم. وأحيط بعدو الله چيبال، وبنيه، وحفدته، وبني أخيه، وذوي الصيت من رهطه، وذويه، فسيقوا بخزائم القسر والأسر إلى موقف السلطان، كما يساق المجرمون إلى النيران، وجوه عليها غبرة الكفران، ترهقها قترة الخذلان، فمن مكتوف إلى الظهر قهرا، أو مسحوب على الخد جرا، أو مضروب على الوريد صبرا. وحلّ مقلد چيبال عن نظيم مرصّع بفرائد الدرّ، والجواهر الزهر، واليواقيت الحمر، قوّم بمائتي ألف دينار. وأصيب أضعافه في أعناق المقتسمين من قرابته بين قتل وأسر، والمطعمين شدقي ضبع ونسر، ونفل الله أولياءه ما فات حدّ الإحصاء، وجاز جهد الحصر والاستقصاء، وأغنمهم خمسمائة ألف رأس من روقة العبيد والإماء. وآب السلطان بمن معه من الأولياء إلى المعسكر غانمين وافرين ظاهرين ظافرين شاكرين الله رب العالمين.

وفتح الله على السلطان من ديار الهند أرضا، تتضاءل بلاد خراسان في جنبها طولا وعرضا. ووافقت هذه الوقعة الباهر أثرها، السائر في الآفاق خبرها، يوم الخميس الثامن من المحرم سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة. ولما وضعت هذه الحرب أحمالها، وحطّت عن الظهور أثقالها، أحبّ السلطان أن يصرف چيبال وراءه، ليراه بنوه وذووه في شعار العار، وإسار الخسار، وتستطير هيبة الإسلام في ديار الكفار، فواقفه على خمسين رأسا من خفاف الأفيال، وارتهن ابنا وحافدا له على الوفاء بها على الكمال.

وعاد الكافر وراءه، حتى إذا استقر مكانه، كاتب ابنه أندپال، وشاهيّته وراء سيحون يشكو إليه ما عراه من الفاقرة الكبرى، والداهية العظمى، وسأله سؤال ملحف أن يؤدي عنه الضمان، بما عزّ وهان. فساق إليه الفيول، وصرف الرسول.

وسيقت جملتها إلى السلطان، فأمر بالإفراج عن أولئك الرهائن، وكسع أدبارهم نحو تلك المدائن.

وحدّث نفسه أندپال بأن أباه قد لبس بردة الخرف، وعضّ على جرة الهرم، وقد طلع عليه نسر الأسر، ودبران الإدبار، وعوته عوّى الامتحان، وشالت به شولة الخذلان، فقد حان أن يلقى حينه، ويتقاضى عليه الزمان دينه. ومن سنتهم المطاعة فيهم، أن من حصل منهم في أيدي التائية - وهم المسلمون- أسيرا، لم تنعقد له من بعد رئاسة، ولم تستتم له زعامة وسياسة. ولما رأى چيبال حصوله بين قيد الهرم وقدّ المذلّة، آثر النار على العار، والمنية على الدنيّة، فبدأ بشعره فحلق، ثم تحامل على النار حتى احترق.

ولما استتب للسلطان ما أراد، وانقاد له ما اقتاد، ارتاح لغزوة أخرى يطرز بها ديباجة مقامه، ويعلم بجمالها عذبات أعلامه، فمال نحو ويهند، فضرب عليها بكلكل الاقتدار، حتى افتتحها صغرا، واعتاض منها بعد العسر يسرا.

وبلغه لياذ طوائف من الهنود بشعاب تلك الأعلام، واستتارهم بخمر الغياض والآجام، متحدثين بالتحزّب للفساد، والتألّب على العناد، فأغزاهم جيشا يدوّخ مجالهم، ويفرّق قبل الوصول أوصالهم، فولغت فيهم السيوف حتى رويت من رشاش دمائهم، وصدئت من مخالطة أحشائهم وذمائهم. وتهارب من سلم من ظباتها كالأوعال في ريود تلك الجبال، يرون الكواكب ظهرا، والمنايا سودا وحمرا، وذاقوا وبال أمرها، وكانت عاقبة أمرها خسرا، وانقلبت رايات السلطان إلى غزنة خافقة بالنجح الشائع، والفتح الرائع، والحول المتين، والنصر المستبين، وقد أشرق وجه الإسلام، وابتسم ثغر الإيمان، وانشرح صدر الملّة، وانقصم ظهر الشرك والبدعة.

وقد كان خلف بن أحمد عند انصراف راية السلطان عن وجهه، عهد إلى ولده طاهر في أعمال سجستان، وأسند أمورها إليه إيثارا له على نفسه، وهداء لكريمة الملك إليه قبل وقته، تثبيتا لها في ملكه، قبل استحقاقه إياها بإرثه، تعريضا للسلطان باستعفائه عن الملك، وإقباله على النسك، واعتياضه تواضع العبادة، عن ترفّع السيادة، ليقطع بخروج الأمر عن يده طمعه عن قصده وحصده. فلما تنفست المدة على ما ولّاه، نطقت شواهد الجحود في اختياره، وبدت نواجذ العقوق عن ثني آثاره. فلم يزل يلاطفه ويداريه، حتى أعماه عما نواه فيه. ثم تمارض في الحصار المذكور، واستدعى ابنه لقبول الوصيّة، وتسليم الودائع الخفيّة، فغفل عن سرّ التدبير، وتدبّر العقاب والنكير، وأقبل إقبال طرفة بن العبد، على خصلتي الضبع، من ضرب الجيد أو حزّ الوريد.

وقد كان خلف بن أحمد كمن له مقانب من جيشه، فأحاطوا به إحاطة خيل الزّباء بجذيمة الوضّاح، إلى أن حصل في معتقله، وحبس في مكمن أجله، وبقي في السجن على حاله، إلى أن أخرجت جنازته محالا عليه في قتل نفسه، والجناية على روحه ودمه.

و لما سمع طاهر بن زيد صاحب جيش خلف بن أحمد، وسائر القواد بسجستان، ما جرى في أمر طاهر، دخلت في طاعته ضمائرهم، ونغلت في موالاته سرائرهم، وانتقضت خوف الأسوة فيه مرائرهم. وضبطوا تلك المدينة على طاعة السلطان ومشايعته، وأرسلوا إليه بما أوجبوه من التمسك بحبل الطاعة، والتنسك بدين الجماعة، وسألوا إنهاض من يتولى تسليم الناحية منهم، ليبتدروا إلى بابه، ويتعطروا بلثم ترابه. ففعل السلطان ما سألوه، وجزاهم الخير على ما فعلوه. وأقيمت الدعوة للسلطان بها في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة.

ولما فتح الله رتاجها، ويسّر له انفراجها، عزم على قصد خلف، وحسم دائه، وكفاية الخاصة والعامة عوادي مكره ودهائه، وهو يومئذ في حصار الطاق، ومن صفته أنه ذو سبعة أسوار رفيعة الجدران، منيعة البنيان، وثيقة الأركان، يحيط بها خندق بعيد القعر، فسيح العرض، منيع المخاض، لا يعبر إلّا من طريق واحد في مضيق على جسر يطرح عند الحاجة، ويرفع عند الاستغناء عنه. فعسكر السلطان حواليه، محيطا به من جوانبه إحاطة المحيط بنقطة المركز. وجعل يستقرىء بالرأي وجه الحيلة، في طمّ ذلك الخندق وكبسه، ليستدفّ على الفارس والراجل خوضه وعبوره. وكانت حوالي معسكره منابت أثل وطرفاء ذوات احتفاف والتفاف، ففرض على أهل عسكره خاصتهم وعامتهم، راجلهم وفارسهم، عضد ما يمكنهم عضده منها، أضغاثا وحزما تلقم عرض الخندق، ليستتب ظهر المجال والمخترق.

وبادر الناس إليه، فلم تشرف شمس النهار على التكبيد، حتى أعرض عرض المخاضة من جانب باب الحصار للركوب، وثار إليه عند ذلك الخيول، وتبعتها الفيول.

ومانع أصحاب خلف بن أحمد من شرفات الحصار، بقذافّات الأحجار. واشتعلت الحرب بينهم ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات:٣٢]. وتنحي على القصرات بالفرس والقسر. وزحف الفيل العظيم إلى باب الحصار، فاقتلعه بنابيه، وزخّ به في الهواء، فانحطّ إلى الأرض من حالق، وقتل من أصحاب خلف الجمّ الغفير، ولجأ الباقون على

أطراف الحاجز، إلى السور الداخل. وذمر عسكر السلطان على الحصار. وتماسك أصحاب خلف فوق شرفات السور الآخر مناضلين عنها بأحجار المجانيق، وأطراف الحراب والمزاريق. واطّلع خلف بن أحمد عند اشتداد الخطب على ملتقى الفريقين، فرأى هول المطّلع، ورأى تموج الفضاء بعفاريت الأنجاد، على شياطين الجياد. وتطاير النبال كرجل الجراد، وترامي الحراب كعزالي السحاب، وفيح الدماء كسيح السماء. وعاين الفيل قد أهوى إلى بعض أصحابه بخرطومه، فرمى به في الهواء قاب رمحين، ثم تلقّاه بنابيه، وأقبل على الآخرين يدوسهم بمنسميه، ثم أنحى على الباب بمنكبيه، فزعزعه بعضادتيه، واقتلعه بضباب الحديد عليه، فاستطار عند ذلك قلبه، وجاش وارتاع روعه، واضطره هول المقام، وفزع الاصطلام إلى طلب الأمان، واستغاثة السلطان، فكفّ عنه يد الإحراج، ووضع عنه سوط الانتقام، كرما غذاه الله بدرّه، وأطربه بنشوة خمره.

و أقبل خلف بن أحمد على بذله الجائزة، حتى استؤذن له على السلطان، فدخل وأهوى إلى الأرض بشيبته البيضاء، متعززا بذلّ الخدمة. وغشّى البساط من سبح الجواهر والفرائد، بما كسف النهار وخطف الأبصار، نثارا ينوب عنه في شكر ما أذاقه من برد العفو والرحمة، وحماه من حريم الروح والمهجة. فتكرّم السلطان بالرفع من قدره، وضمّ يده عند التقريب إلى صدره، تناسيا لما سبق من هناته، وتغابيا عما أقدم من ذحوله وتراته، وحكّمه في احتمال ما أحب من زبد يساره، وذخائر حصاره، وخيّره في المقام حيث شاء من ديار ممالكه وأمصاره. فاختار أرض الجوزجان، استرواحا إلى نسيم هوائها، واستعذابا لنمير مائها، واتساعا في مراتع الصيود حول أرجائها. وأمر السلطان بتسييره إليها في هيئة ذوي الهيبة، معافى بلباس الصيانة عن عورة المهانة. فأقام بها قرابة أربع سنين في ظل الترفيه، وساعدته القناعة بما هو فيه.

ثم أنهي إلى السلطان مراطنة بينه وبين أيلك الخان، بملطفات سيّرها إليه، ورسالات أغراه بها عليه، فاقتضاه الاحتياط نقله إلى جرديز، إبقاء عليه من صدق ما أضيف إليه، واستتماما للصنيعة لديه، واحتراسا مما يلجأ إليه من أباطل ذلك الإفضال، وتكدير ذلك الغدير. فبقي هناك على جملته إلى أن حقّت عليه القضيّة، واخترمته المنيّة،

وذلك في رجب سنة تسع وتسعين وثلثمائة. وأمر السلطان بحفظ جميع ما تخّلف عنه على ولده أبي حفص، وتقريره في يده، وتمكينه من خدمته.

وأنشدني أبو منصور الثعالبي لنفسه فيه حين وهى أمره، وصفرت عن الملك يده[1]:

من ذا الذي لا يذلّ الدهر صعبته ... ولا تلين يد الأيام صعدته
أما ترى خلفا شيخ الملوك غدا ... مملوك من فتح العذراء بلدته
وكان بالأمس ملكا لا نظير له ... فاليوم في الأسر لا ينتاش أسرته

وكان خلف بن أحمد مغشي الجناب من أطراف البلاد، لسماحة كفّه، وغزارة سيبه، وإفضاله على أهل العلم وحزبه. وقد مدح على ألسنة الشعراء والعلماء بما هو سائر، وذكره في الآفاق طائر. وكان قد جمع العلماء على تصنيف كتاب في تفسير كتاب الله تعالى، لم يغادر فيه حرفا من أقاويل المفسرين، وتأويل المتأولين، ونكت المذكّرين. وأتبع ذلك بوجوه القراءات، وعلل النحو والتصريف، وعلامات التذكير والتأنيث، ووشّحه بما رواه عن الثقات الأثبات من الحديث. وبلغني أنه أنفق عليهم مدة اشتغالهم بمعونته على جمعه وتصنيفه عشرين ألف دينار، ونسخته بنيسابور موجودة في مدرسة الصابوني، لكنها تستغرق عمر الكاتب، وتستنفد حبر الناسخ، إلا أن يتقاسمها النسّاخ بالخطوط المختلفة.

وأخبرني أبو الفتح علي بن محمد البستي رحمه الله، قال: كنت عملت فيه ثلاثة أبيات من غير قصد لتبليغها إياه، لكنها سارت على ألسنة الرواة إليه، فلم أشعر إلا بصرّة فيها ثلثمائة دينار أتحفني بها على يد بعض ثقاته صلة لي على ما قلته وعملته. والأبيات هذه:

خلف بن أحمد أحمد الأخلاف ... أربى بسؤدده على الأسلاف
خلف بن أحمد في الحقيقة واحد ... لكنه مرب على الآلاف
أضحى لآل الليث أعلام الورى ... مثل النبي لآل عبد مناف

(١) انظر: الديوان ١/٢٩.

فقلت له: قريب من هذه الصورة حديث إبراهيم بن هلال الصابي وذلك أن رسولا لسيف الدولة كان قدم مدينة السلام، فطلب شيئا من شعره على لسان صاحبه، فدافعه إلى أن أزف ارتحاله، وأتاه عند الوداع ملحا عليه في تنجّزه، فأعطاه عجالة الوقت قوله[1]:

إن كنت خنتك في المودة ساعة ... فذممت سيف الدولة المحمودا
و زعمت أن له شريكا في العلى ... وجحدته في فضله التوحيدا
قسما لو اني حالف بغموسها ... لغريم دين ما أراد مزيدا

فلما عاد الرسول إلى الحضرة، حمل إليه صرة فيها ثلثمائة دينار موسومة باسمه.

وللشيخ أبي الفتح البستي فيه يمدحه أيضًا:

من كان يبغي علوّ الذّكر والشرفا ... ويبتغي عطف دهر قد نبا وجفا
أو كان يأمل عند الله منزلة ... تنيله قرب الأبرار والزّلفا
أو كان يطلب دينا يستقيم به ... ولا يرى عوجا فيه ولا جنفا
أو كان ينشد مما فاته خلفا ... فليخدم الملك العدل الرضا خلفا
الوارث العدل والعلياء من سلف ... حثوا بعليائهم في وجه من سلفا
المؤثر القصد في أنحاء سؤدده ... فإن أراد عطاء آثر السرفا
إذا التوى عنق ولى حكومته ... سيفا إذا ما اقتضى حقا له انتصفا
والسيف أبلغ للأعناق موعظة ... كم من صليف حماه حده الصّلفا
وإن بدا كلف في وجه مكرمة ... جلا بلا كلف في وجهه الكلفا
رضاه يصرف عمن يستجير به ... صرف الزمان إذا ما نابه صرفا
إذا اقشعرّ زمان من جدوبته ... أغنى الورى وكفى جود له وكفا
بسخطه يدع الأفلاك خائفة ... والشمس حائرة والبدر منكسفا
يرى التوقف في يومي وغى وندى ... وصما فإن عنّ رأي مشكل وقفا
لله نصل ضئيل في أنامله ... أعاد حظّي سمينا بعدما نحفا

---

(١) الأبيات لأبي إسحاق الصابئ، انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٣٢٩/١، ومعجم الأدباء ١٤٦/١.

يهين أمواله كي يستفيد بها عزّا يؤثّل في أعقابه الشرفا
والمرء للّوم في أحواله هدف إن لم يكن ماله من دونه هدفا
لا يلحق الواصف المطري معانيه وإن يكن سابقا في كل ما وصفا

وأنشدني أبو الفضل الهمذاني قصيدته التي مدح بها خلف بن أحمد، وأولها[1]: [الطويل]

سماء الدجى ما هذه الحدق النجل أصدر الدجى حال وجيد الضحى عطل
لك الله من عزم أجوب جيوبه كأني في أجفان عين الردى كحل
كأن السرى ساق، كأن الكرى طلا كأنا لها شرب، كأن المنى نقل

وفيها يذكر أباه بهمذان، واستقباله الحجيج للسؤال من خبره، والبحث عن وطنه ووطره:

يذكرني قرب العراق وديعة لدى الله لا يسليه مال ولا أهل
إذا ورد الحجاج لاقى رفاقهم بفوّارتي دمع هما السجل والنجل
يسائلهم كيف ابنه أين داره إلام انتهى لم لم يعد هل له شغل
أضاقت به حال؟ أطالت له يد؟ أ أخّره نقص؟ أقدّمه فضل؟
يقولون وافى حضرة الملك الذي له الكنف المأمول والنائل الجزل
فقيد له طرف وحلت له حبى وخير له قصر ودرّ له نزل
وفاضت عليه مطرة خلفية بها للغوادي عن ولايتها عزل
يذكرهم بالله إلا صدقتم لدي أجدّ ما تقولون أم هزل
طوينا للقياك الملوك وإنما بمثلك عن أمثالهم أبدا نسلوا
ولما بلوناكم تلونا مديحكم فيا طيب ما نبلوا ويا صدق ما نتلوا
ويا ملكا أدنى مناقبه العلى وأيسر ما فيه السماحة والبذل
هو البدر إلا أنه البحر زاخرا سوى أنه الضرغام أسكنه الوبل
محاسن يبديها العيان كما ترى وإن نحن حدثنا بها دفع العقل
فقولا لوسّام المكارم باسمه ليهنك إن لم تبق مكرمة غفل

(١) انظر: ديوان بديع الزمان الهمذاني ١/١٧٧، ومعاهد التنصيص ١/٢٨٣.

وجاراك أفراد الملوك إلى الندى وحقا لقد أعجزتهم ولك الخصل
سما بك من عمرو بن يعقوب محتد كذا الأصل مفخورا به وكذا النسل

وأنشدني السيد أبو جعفر محمد بن موسى الموسوي بيتين ذكر أنهما مكتوبان على باب داره وهما[1]: [البسيط]

من سرّه أن يرى الفردوس عالية فلينظر إلى إيوان كإيواني
أو سرّه أن يرى الرضوان عن كثب بملء عينيه فلينظر إلى الباني

نعم، وصفت سجستان للسلطان، فهدأت عيون الفتن، وسقطت نجوم الإحن، وانقطعت أطماع الخلفيّة بها عن التعصّب والتحزّب، وانخفضت أبصارهم دون التوثب والتغلّب. ورجع السلطان إلى غزنة باهر الأمر، عالي القدر، قد صنع الله له فيما رامه، وسدّد نحو المراد سهامه، وشهره بافتراع المدينة العذراء، واستصفاء المملكة الغراء، واطّلاع ذروة الرجاء، وادّراع الأمة العزّ والعلاء. وأنشدني أبو منصور الثعالبي في فتح سجستان من قصيدة لنفسه[2]: [الكامل]

سَعِدَتْ بِغُرَّةِ وَجْهِكَ الأيَّامُ وتزينت ببقائك الأعوام
وتصرفت بك في المعالي همة تعيا بها الأفهام والأوهام
ولقد فرشت مهاد عدلك فاغتدت تتوارد الآساد والآرام
وافتضّ سيف علاك كل مدينة بكر عليها للإياس ختام
هذي زرنج استغلقت وتمنعت فكأنها إلا عليك حرام
ففتحتها وأبحتها ومنحتها نفرا هم لفنائك الخدام
وقدمت والأيام تنشد في الورى بيتا تجيد نشيده الأيام
قد جاء نصر الله والفتح الذي تزهي بكتبة وصفه الأقلام
بأجلّ أحوال وأيمن مقدم وأتمّ إقبال يليه دوام

---

(١) انظر: يتيمة الدهر ٢/٩٥.

(٢) انظر: إتمام الدراية (١/١١٨) ومختصر المعاني (١/٩٥)، وشرح عقود الجمان للسيوطي (١/١٥٤).

ورحم الله البديع أبا الفضل الهمذاني حيث يقول في السلطان يمين الدولة وأمين الملة[1]: [الهزج]

تعالى الله ما شاء ... وزاد الله إيماني
أأفريدون في التاج ... أم الإسكندر الثاني
أم الرجعة قد عادت ... إلينا بسليمان
أظلت شمس محمود ... على أنجم سامان
وأمسى آل بهرام ... عبيدا لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل ... لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطانا ... على منكب شيطان
فمن واسطة الهند ... إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند ... إلى أقصى خراسان
وفي مقتبل العمر ... وفي مفتتح الشأن
فيوما رسل الشاه ... ويوما رسل الخان
فما يغرب بالمغر ... ب عن طاعتك اثنان
لك السرج إذا شئت ... على كاهل كيوان
أيا والي بغداد ... ويا صاحب غمدان
تأمل مائتي فيل ... على سبعة أركان
يقلبن أساطين ... ويلعبن بثعبان
عليهنّ تجافيف ... يشهّرن بألوان
ويأجوج ومأجوج ... من الجند تموجان

واستخلف السلطان على سجستان المعروف بتنجي الحاجب، أحد المحتشمين من قواد ناصر الدين سبكتكين، فحسنت في السياسة سيرته، واشتدت في الرفق بالبريء والعنف على المريب بصيرته.

(١) انظر: ديوان بديع الزمان الهمذاني ٢١١/١، ومعاهد التنصيص ٢٩٢/١، ولباب الآداب ٢١٣/١.

ثم إن طوائف من نجوم الفتنة، ورجوم الشرّ والعصبية، أبطرتهم رفاهة العيش، ورفاعة الأمن، وفسحة الحال، وسعة المجال، فتحدثوا بينهم بتقديم من يضمهم على العصيان، ويؤمهم في الخروج على السلطان، تعرضا للبلاء، وتحككا بالشقاء، واجتراء على سوء القضاء. فأبرزوا صفحة الخلاف، واخترطوا نصل الشرّ من الغلاف. فلما رأى السلطان انتقاض سجستان على خلفائه وأمنائه، بادر إليها في عشرة آلاف رجل من نخب العسكر، ومعه صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين، والتونتاش الحاجب، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي زعيم العرب، وحصر المردة العتاة في حصار أرك، ووكّل خيول عسكره بجوانب الأسوار، وقسمّ بينهم محالّ ذلك الحصار.

ونشبت الحرب بعد العصر من يوم الجمعة للنصف من ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة.

و خاض السجزية غمرتها ساعة متوازرين على المدافعة، ومتضافرين على الممانعة والمقارعة، حتى إذا أوهنهم السلاح، وأثختهم الجراح، لاذوا بالانجحار، والاعتصار بسور الحصار. وظهر أولياء السلطان على بعض جوانب السور، في ظلمة الديجور، فتنادوا بشعار الملك المنصور. فانهزم الفجّار، وملك عليهم الحصار، وبسطت أيدي القتل والضرب على من نفضتهم الدور، ولفظتم المساكن والقصور، فمن رؤوس منبوذة، وأعناق مجذوذة، ووجوه مكبوبة، ودماء على الأرض مصبوبة.

وهام الآخرون على وجوههم يتساقطون من كسع الأدبار في الآبار، ويلوذون من ضرب الأخادع بالمخادع، ويفزعون من شنّ الغارات إلى المغارات، والطلب يقطع دابرهم، ويقرع بالأول آخرهم، حتى خلت سجستان من عيث شرارهم، وسلمت من بثّ شرارهم.

وفتح الله تلك المملكة على السلطان فتحا ثانيا، وملكا تاليا، فلم يسمع على الأيام، بمثله فتحا في غلق الظلام. واستقامت هيبة السلطان في أهل سجستان، حتى نامت لياليهم عن دبيب العقارب، وصرير الجنادب. وأنشدني بعض أهل العصر على تفيئة النصر:

يا أيها الملك الذي زند المعالي يقتدح لا زال ثغرك باسمًا من أجل ثغر تفتتح

وأنشدني أبو منصور الثعالبي في هذا الفتح الشهير والنجح الكبير يمدح السلطان يمين الدولة وأمين الملة(١):

يـا خـاتم الملـك ويـا قـاهر ال أمـلاك بـين الأخـذ والصـفح
عليـك عـين الله مـن فـاتح لـلأرض مسـتول عـن الـنّجح
راياتـه تنطـق بالنصـر بـل تكـاد تملـي كتـب الفـتح
كـم أثـر فـي الـدين أثّرتـه يقصـر عنـه أثـر الصـبح
وكـم بنـى للملـك شـيدتها تثنـي عليهـا ألسـن المـدح
فاسـعد بأيامـك واسـتغرق ال أعـداء بـالكبح وبالـذبح
ودم رفيعـا عـالي القـدح ممتنـع الملـك علـى القـدح

ثم جعل السلطان سجستان طعمة لأخيه صاحب الجيش أبي المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين مضافة إلى نيسابور، وناهيك بهما ولاية في بلاد المشرق.

فنصب لخلافته عليها أبا منصور نصر بن إسحاق وزيره، ووكل بها تدبيره، ورضي لها تقديمه وتأخيره. فقام بضبط الولاية، واستدرار الجباية، وإتقان السياسة، وإنعام الحراسة، قيام من عدّله الزمان بثقافه، وزيّنه الكمال بأوصافه.

وعاد السلطان إلى بلخ على استئناف الجدّ في غزو الهند، على ما سنذكره في موضعه إن شاء الله وحده.

(١) انظر: ثمار القلوب ١/٣٥.

ذكر شمس المعالي قابوس بن وشمكير وانتقاله إلى مملكته بعون الله ونصرته بعد طول التقلب في التغرب

قد كان شمس المعالي أقام بخراسان ثماني عشرة سنة مداريا ومصابرا للدهر على وقعاته، وتصرف حالاته، لم تغمز يد الحادثات قناته، ولم يقرع صرف النائبات صفاته، ولم تنقص دوائر الأيام مروءته، ولم تنقض على اختلاف أحوالها حبوته، ولم يبق من أصحاب الجيوش وزعماء الجمهور من لم يضرب بسهم من نوافله، ولم يرجع إلى حظ من عطاياه وفواضله، ولم يخدمه أحد من ذوي الحشمة بسلام، إلا حظي منه بإنعام وإحسان، وأحبية ألوان، وأفراس مطهّمة حسان. فعلى الأكتاف خلعه ولباسه، وتحت الأفخاذ مراكبه وأفراسه، وحشو البيوت بدره وأكياسه.

وقد كان آل سامان يهمّون بردّه إلى مملكته حيازة لقصب السبق في إدالته على خصمه، وإفاءة مملكته إلى يده، فيقطعهم توالي الفتوق من كل وجه عليهم عن إصابة أغراضهم في أمره. وألهمته بصيرة التجارب مداراة المحنة، حتى ينتهي زمانها، وينقضي على الإقبال بحرانها، إذ كان الاضطراب في المحن كالاضطراب في حبل الخناق ما يزداد صاحبه على نفسه حركة، إلا ازداد اختناقا وهلكة، ومما يضاف إلى شعره قوله[1]: [البسيط]

قل للذي بصروفِ الدَّهرِ عيَّرَنا ... هلْ عاندَ الدَّهرُ إلاَّ مَنْ لَهُ خَطَرُ

أما ترى البحر تعلو فوقَهُ جيَّفُ ... ويَسْتَقِرُّ بأقصى قِعرِهِ الدُّرَرُ

فإن تكن نشبت أيدي الزمان بنا ... ومسّنا من عوادي بؤسه الضرر

ففي السماء نجوم ما لها عَددٌ ... وليسَ يكسِفُ إلاَّ الشمسُ والقمرُ

ولما وطىء ناصر الدين سبكتكين عراص خراسان، وأقدره الظفر بأبي علي على كورها، ارتاح للقائه، وما ينتحيه من نصرته وإعلائه. ثم اتفق له من الانقلاب إلى بلخ ما حال بينه وبين المراد، فغبر مدة على جملته إلى أن انقرض أمر أبي علي، وخوي نجم الشغل به. وانحدر إلى طوس لطلب أخيه أبي القاسم السيمجوري، فجدد عند ذلك

(١) انظر: يتيمة الدهر ٦٩/٤، ونهاية الأرب ٧٤/٧، ومعاهد التنصيص ٢٥٩/١.

شمس المعالي عهده به، ولا طف كلّ منهما صاحبه بما لا يفي به بيان، ولا يتسع له حساب ولا حسبان.

وجرى ذكر فخر الدولة صاحب الري واستظهاره ببدر بن حسنويه صاحب الأكراد، والفوارس الأنجاد. وأراد ناصر الدين سبكتكين أن يستظهر عليهم بكماة الشرق، ورماة الحدق، من كتائب الأتراك الخانية، فأرسل حاجبه الكبير التونتاش إلى أيلك الخان يتنجّزه حكم الحال التي تفارقا عليها بما وراء النهر من الاتحاد في الوداد، والاشتراك في الأملاك، بإمداده بعشرة آلاف رجل من نخب رجاله، وشهب أبطاله. وصرف شمس المعالي وراءه على ميعاد معاده.

ورجع ناصر الدين سبكتكين إلى بلخ مستعدا للأمر، ومنتظرا لوصول العدد الدّثر، فاستأثر الله به قبل أن عاد الرسول، وتحقق المسؤول، فحبط عليه ما صنع، وصوّح دونه نبت ما زرع. وتوسط وجوه الناس بين السلطان يمين الدولة وأمين الملة، وبين شمس المعالي في إسعاده وردّه إلى معاده، على مال يقضي به حق غنائه، ويضاهي حسن بلائه في تحقيق رجائه، وتمحيق مكائد أعدائه. فأظهر الوفاء به لغاية شهرين من قراره بجرجان، إذ كان يحيل كل ما التزمه على ما يدرّ له من أحلابها، ويحفل من أخلافها. وإنه يتحاشى بدء انتقال الملك إليه خبط رعيّته بالحيف والعسف، والإنحاء عليهم بمبردي الحرق والنسف. فأعجل السلطان يمين الدولة وأمين الملة ما أهمه من إرث أبيه، وشغل الخاطر بأخيه، عن تقديم إظهاره وتعجيل رده إلى داره، فاستمهله ريثما يكفي ما أمامه، وينفض الشغل بما رامه. وسار إلى غزنة حتى يسّر الله له افتتاحها، وداوى على يده جراحها.

و كان أبو القاسم بن سيمجور مقيما بقومس، فلما مضى فخر الدولة لسبيله، انحاز إلى جرجان متغلبا عليها، وكاتب شمس المعالي قابوس بن وشمكير في الامتداد إليها، ليقوم بتسليمها إليه، وتقريرها في يديه؛ فسار على سمت الروغد حتى وافى جرجان، وأبو القاسم بن سيمجور باستراباذ، وقد جهّز من الري أبو العباس فيروزان ابن الحسن في جماهير المشاهير من قواد الديلم والأكراد لدفعه عنها، وكان قد أطمع أبو القاسم من بخارى في ولاية قهستان وهراة، وأمر بمعاودة خراسان للاعتضاد به، والاستظهار بعدّته وعديده، فجرّد عزمه للانصراف، وضرب تلك المواعيد بالإخلاف، غير حافل بما

يلحقه من المذمّة بخذلان من جشّمه لنصرته، واستقدمه على ما تحت يده وقدرته، وسار نحو إسفرايين. فانقلب شمس المعالي قابوس ابن وشمكير إلى نيسابور على حرّة النهل، استيناء بالوقت إلى مقتطف الرجاء ومخترف الأمل، وتربصا بما حوته رحم الليالي من جنين المقدور في إدالة الميسور على المعسور. ولما رأى أمور آل سامان مختلّة النظام، منحلّة العراقي والأوذام، لا تزداد على الرقع إلّا خرقا، وعلى الرتق إلا فتقا، مخض الرأي فيما يقيم له مائد أمره، ويحوش عليه آبد ملكه، فكانت زبدة مخضه أن سرّب الاصبهبذ شهريار بن شروين إلى جبل شهريار لا ستصفائه، فسار نحوه بمن تحت لوائه، وعلى الجبل يومئذ رستم بن المرزبان، خال الأمير أبي طالب رستم بن فخر الدولة صاحب الرّي، فتناهدا للقتال على رسمهم في الاحتراس بالتراس، وادّراع لباس البأس. فشدّ عليهم الاصبهبذ شدة شرّدتهم بين المهامه والدكادك، وأقحمتهم لهوات المعاطب والمهالك. وأصاب منهم غنيمة جسيمة، بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة. وأقام الخطبة بالجبل على شمس المعالي قابوس بن وشمكير.

و كان بايي بن سعيد- أحد أعيان الجيل وشجعانهم – مقيمًا عند الأستندارية في طوائف من أضرابه، مشايعا لهم في ظاهر الأمر، وناظرا إلى موالاة شمس المعالي من نقاب السرّ. واتفق أن نصر بن الحسن بن فيروزان لفظته الإضافة بناحية الديلم إلى حدود الأستندارية، فطمع في مغالبتهم عليها، ومزاحمتهم فيها، فقذف من جمرات أنيابها بمن طرده عنها، وقبض على خاله أبي الفضل اصبهبذ كلار، فسجن إلى أن دفن.

ومايل بعد ذلك بايي بن سعيد نصرا، فتساعدا على قصد آمل، وبها أبو العباس الحاجب في زهاء ألفين من عسكر الريّ، فأجلياه عنها هزيما تقفوه الصّفاح، وهشيما تذروه الرياح. وطيّر بايي بن سعيد عند ذلك كتبه إلى شمس المعالي بذكر الفتح الذي أتيح له على شعار موالاته، واستشعار طاعته وممالأته، وإظهار التنصّح باستطلاع راياته.

ففصل عن نيسابور سائرا نحو جرجان. وتحيّز بايي بن سعيد عن مضامّة نصر إلى استراباذ مجاهرا بشعار صاحبه. وتجمّع إليه من أبناء الجيل من كان يسلك شعب هواه، ويستلم ركن طاعته ورضاه. وكتب شمس المعالي إلى الاصبهبذ بالانضمام إلى بايي، وجمع اليد إلى يده فيما قدّم وأخّر، والشدّ على عضده فيما أورد وأصدر، ففعل ما أمر.

وتسامع أبو العباس فيروزان بن الحسن بنبئهما وهو مقيم بجرجان، فنهد لكفاية أمرهما، وإخماد ما التهب من جمرهما، فواقعاه بباب استراباذ وقعة أنّت فيها حدود القواطع من حديد المدارع، ومزارق الزانات من مفارق الهامات. وكادت الهزيمة تستمر بأصحاب بايي لو لا انقلاب الأكراد والعرب في عسكر الديلم عليهم ببيض الظبى وزرق العوالي، منادين بشعار شمس المعالي. فانهزم أبو العباس فيروزان بن الحسن فيمن معه، وركب الطلب أكتافهم فأسر هو، وزهاء ألف وعشرين نفرا من وجوه القواد في جملته، وأسري بقية الفلّ نحو جرجان، وقد قدّم إليها قابوس بن وشمكير سالار خركاش - أحد أقاربه- فوافق انهزامهم إليها إطلاله عليها. وتسامع الفلّ به، فضجّوا رنة وعويلا، وضلوا فلا يستطيعون سبيلا، واضطروا إلى استئناف الهزيمة قرحا على قرح، وملحا فوق جرح. وخوطب شمس المعالي قابوس بن وشمكير بخبر الفتح، وما هيأه الله له من عظيم النجح، فسار إلى جرجان وقد شرح الله صدره، وجلى عن الكسوف بدره، ونسخ باليسر عسره، وزاد على القدر قدره، ودخلها في شعبان سنة ثمان وثمانين وثلثمائة. ولبعض كتاب أهل العصر فيه عند زفاف الملك إليه قصيدة أولها:

الجدّ ما لم يعنه الجدّ غدّار ... والحرّ ما لم يزنه الصّبر خوّار
وللكريم إذا الأيام زلن به ... عن المنى بثبات النفس أعذار
كم فاضل وجنون المنجنون له ... حيفا على حسك اللأواء جرار
وكم جريح قريح القلب ذي عبر ... وكم قتيل وما للسيف آثار
وكم فقير بلا جرم وخائنة ... وكم غني وللأيام أدوار
سير سريع ودور غير منصرم ... نصب العيون ودون الغيب أستار
من كان يخبر حال الدهر دائرة ... لم يثنه عن عيان الحال أخبار
وإنما حاصل الأيام مختبرا ... جذر أصم عن التحقيق فرّار
ينحى الزمان على من لا اصطبار له ... ورقّه للذي في العسر صبّار
فاصبر هديت فإن الصبر منجحة ... ومن وراء ظلام الليل إسفار
والدهر ذو غير أحواله ثوب ... عسر ويسر وأحلاء وأمرار
والبدر يدر كه التمحيق منتقصا ... وبعده لضياء التمّ أنوار
والنار في خلل العيدان كامنة ... وسقطها باقتداح الزّند سعّار

والجدّ يطبع كالصمصام ثم له ... من صيقل الدهر جلّاء وشهّار
هذاك شمس المعالي في سيادته ... له مع الفلك الدوّار أخبار
أعطاه من غرر الآمال ما قصرت ... عن نيل أمثالها في الدهر أعمار
ملكا وعزا وعيشا رافغا وعلى ... ودولة ضمنها نصر وإظهار
لما كساه دروع العزّ ضافية ... ولم تجد منه غير الشكر يختار
أبدى نشوزا عليه كي يجرّبه ... بالصبر والصبر للأحرار مسبار
حتى إذا ما قضى من سبره وطرا ... وللأمور نهايات وأطوار
أمسى يعاود ما أرضاه في خفر ... وخدّه بدم التّشوير فوّار
فالمجد خادمه والعزّ صارمه ... والرأي رايته والخلق أنصار
قرم تضيء حياة العالمين به ... كأنه الشمس والأعمار أقمار
راح الكرام إلى أو كار نائله ... كأنه الليل والأحرار أطيار
له المعالي سماء والندى شهب ... والمجد سارية والجود أمطار
علاه كالليل والمصباح همّته ... ونقله الجود والآمال سمّار
تراه تنهزم الأموال عن يده ... مثل انهزام العدى عنه إذا ثاروا
ومجده الدهر قنّاص لهمته ... والجود باز له والصيد أحرار
حياؤه بوقاح السيف ممتزج ... وعدله في حزون البأس سيّار
ندى يديه إلى الفردوس منتسب ... ووقع سطوته في حرّه النار
يوم الهياج صفاح البيض ظلته ... والجوّ من لهب الطعنات صهّار
يغامس الحرب والأرواح راقية ... إلى التراقي وطرف الموت نظّار
يرشّ من دفع الأعناق قسطلها ... إذ نقعها بحوامي الخيل ثوّار
تناذرت أنجم الأفلاك سطوته ... إذ الرماح من الأرواح تمتار
فهن في ذمة الأضواء آنسة ... وهن من طخية الظلماء نفّار
للمشتري بينها في الخصر منطقة ... يبغي رضاه وللمريخ زنّار
كفته روعته أمرا بمصلحة ... فما يدور على المحظور ديّار
وقد أفاض على الظلماء هيبته ... فما يصرّ حذار البأس صرّار

إن السلامة أن لو ألهمت نطقت ... يا رب إنك لي من سيفه جار
يا أيها الملك الميمون طائره ... ومن نداه كفيض اليمّ زخّار
إن الزمان عروس مالها أبدا ... سوى خصالك مشّاط وعطّار
البخل عندك في وجه الندى كلف ... نعم وفي غرة الإقبال إدبار
ترمي العدى من بنات الكيد صائبة ... وإن رموا خانت المرميّ أوتار
كأن ما قد رموا من لعن ظالمة ... وما رميت به وحي وأقدار
تحمى وتلتهب الأوتار رامية ... كأنما أحمت الأوتار أوتار
لا زال في نعم تفضي إلى نعم ... ما طاف حول فناء البيت عمار
ممتّعا بسرور غير منقرض ... حتى تفوق نجود الأرض أغوار

ولأبي بكر محمد بن العباس الطبري المعروف بالخوارزمي فيه من قصيدة يمدحه بها عند مقامه بنيسابور:

قامت تودعني بالأدمع السجم ... والصمت بين يد منها وبين فم
البين أنطقها والبين أخرسها ... وهذه حالة في الناس كلهم
قد طالما انهزمت عنا السيوف فلا ... تحاربينا بجيش الورد والعنم
و قد خلعت لجام الاتباع فلا ... تلقى سوالفنا في ذمة اللّجم
لم يبق في الأرض لي شيء أهاب له ... فهل أهاب انكسار الجفن ذي السقم
أستغفر الله من قولي غلطت بلى ... أهاب شمس المعالي أمة الأمم
غضّي جفونك عني رحمة لدمي ... فإن سفرت فقد حاولت سفك دمي
وإن دعاك أبو يحيى لنصرته ... يوما علي فأبدي الثغر وابتسمي
كأن لحظك من سيف الأمير ومن ... حتم القضاء ومن عزمي ومن كلمي
قال الأمير لأخلاق الكرام قفي ... بحيث أنت فما زادت على نعم
و قال للعلم والآداب لا تردا ... إلا عليّ فما فاها بلا ولم
القائل القول لو فاه الزمان به ... صارت لياليه أياما بلا ظلم
والفاعل الفعلة الغراء لو مزجت ... بالنار لم تسكن النيران من حمم
لا تحفلن بنضوب الماء في يده ... فقد تجفّ ضروع العارض السجم

قد يجزر البحر بعد المدّ تعرفه وينزل الجدب وكر الأجدل القطم
و لا يغرنّك أن الدهر حاربه قد يغدر السيف يوم الروع بالبهم
الآن إذ غدت الدنيا تجمشّه وقابلته صباحا أوجه النعم
ترنو إليه فتخفي شخص منقبض لما جنته وتغضي طرف محتشم
إذا دعت نحوه ساقا نهت قدما والعمر يذهب بين الساق والقدم
حيرى تقرّ بها حال وتبعدها كذا يكون رجوع الآبق السّدم

وله فيه من قصيدة أخرى يقول في نسيبها[1]: [الطويل]

شموس لهنّ الخدر والبيت مغرب فطالعها للبين والهجر غارب
و لكنما شمس المعالي خلافها مشارقه ليست لهنّ مغارب
و ما لقّبوه الشمس إلا وقد رأوا بأنك شمس والملوك كواكب
أقول لزوّار الأمير ترجّلوا فمن زاره من راجل فهو راكب
و إن زاره الفرسان كنت كفيلهم بأن يرجعوا والخيل فيهم جنائب
ألا بلّغا عني الأمير رسالة تدلّ على أني على الدهر عاتب
إلى كم يحل المرء مثلك بلدة بها منبر فيه لغيرك خاطب
عليك بهذا السيف فاقض ديونه فللسيف دين عند كفك واجب
ولا تقعدن تغضي الجفون على القذى وفي الأرض مركوب ورمح وصاحب
غريمك هذا الدهر فالزمه يغترم فلن يوقظ الغرّام إلا المطالب
وأنت ابن عم السيف بل أنت عمه وكيف تخاف الأقربين الأقارب
أليس أبو كم وشمكير و جدّكم زيار ومرداويج عمّ مناسب
تحرك بنا إما لواء ومنبر وإما حسام كالعقيقة قاضب

وللقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني فيه من قصيدة أولها:

أمسرى خيال الهاجر المتجنّب ومجرى دموع الزائر المتطرب
سألتك بالدهر الذي صرت بعده قذى ناظري من بعد أن كنت ملعبي
أعنّي على عين إذا ما وعدتها بقربك قالت للدموع تأهبي

(١) انظر: يتيمة الدهر ٤/٢٥٣، ومعاهد التنصيص ١/٤١٩.

ولما تداعت للغروب شموسهم وقمنا لتوديع الفريق المغرّب
تلقين أطراف السجوف بمشرق لهن وأعطاف الخدور بمغرب
فما سرن إلّا بين دمع مضيّع ولا قمن إلّا فوق قلب معذب
كأن فؤادي قرن قابوس راعه تلاعبه بالفيلق المتأشّب
همام يراه المال أسرع حادث إلى حتفه والقرن أخوف معطب
يفضّ العدى أطرافه قبل عزمه ويطرقهم رعبا ولم يتأهب

وفيها يصف الزانات:

وزرق على سمر تظل إذا هوت تلاحظ أعقاب الشهاب المذنب
ترفّعن عن طيش الرماح وزلّة السهام وتقصير الحسام المجرب
فحزن ظبات البيض ثم وصلنها إليهنّ من سمر الرماح بأكعب
فنلن منال السهم من متبعّد وقمن مقام السيف من متقرب

وفيها:

فتى ما تلاقت همتان بصدره ولا يشهد الجلّى برأي مشعّب
له الهمّة العلياء والمنصب الذي تتبعه الجوزاء ألحاظ متعب
إذا بعض أطراف الزمان تقاصرت عن المجد ألفوه كريم التغلّب
يزاحمهم من وشمكير بمنكب ومن سلف الاصبهبذين بموكب
ويذهب من مجد وعزّ ومفخر بآثار مرداويج في كل مذهب
وما خلصت للمرء مسعاة والد إذا لم يقابله بخال مهذب
كلا طرفيه يرجع الطرف خاسئا إذا رامه عن كل خرق محجّب
يحوز معالي أردشير بخاله ويعلو الربى عن شأو ساسان بالأب

ولما انتهت الهزيمة بالقوم إلى الريّ، على جملة الانكسار، وذلّة الاقتسار، وسبّة القتل والإسار، قطع عليهم سياط العذل والتعنيف، وملئت عيونهم من نفثات التعبير والتشوير. وكان أبو علي الحسن بن أحمد بن حمويه على الوزارة، فاختار عشرة آلاف رجل من بهم الديلم وفتّاك الأتراك، ونخب العرب، وأفراد الأكراد، وسار بهم في منوچهر بن قابوس، وبيستون بن تيجاسب، وكنار بن فيروزان، ورشاموج ابن أخت

عظيم الديلم، وموسى الحاجب، وأسفار بن كردويه، وأبي العباس بن جايي، وعبد الملك بن ماكان، وهؤلاء رتوت الجيل والديلم، حتى أظل شهريار. وبلغ شمس المعالي قابوس إقباله، فاستضم أطرافه، واستظهر بشهريار استعدادا لمواقعته، وتنجّزا لوعد الله في نصرته، وتثبيت وطأته، واستتمام ما أعاده إليه من نعمته.

وحاذر أبو علي بن حمويه ممالأة نصر بن الحسن بن فيروزان شمس المعالي قابوس بن وشمكير، وانقطاعه إلى جانبه، فواصله بكتبه، نافثا في عقدته، فاتلا في ذروته، نافخا بسحره في سحره، وملقيا إليه أن القرابة الواشجة بين أبي طالب بن فخر الدولة وبينه، لو صادفت منه حكمها في الإشفاق على دولته، والانتداب لنصرته، لكان أحق الناس بسياسة أجناده، وزعامة ممالكه وبلاده، وأنه الآن متى سلك طريق الخدمة، وجانب جانب التّهمة، وحافظ على حرمة اللّحمة، لم يعدم ما يهواه من ترتيب وترحيب، وتنويل وتخويل، وتفخيم وتقديم. وأذن له في الانتقال إلى قومس إلى أن يدبر أمره بمقتضاه، فارتاح نصر لما شامه من تلك العقيقة، ووثق به على الحقيقة، وسار نحو سارية، ثم قرض الجادة ذات اليسار، وركب ذات اليمين مما يلي طراشك وأباذان حتى إذا حاذى رقعة قومس، أذاع في أصحابه رأيه في طاعة أبي طالب، وأنه - ما عاش- رقيق خدمته، ونصير دعوته. فاختلفت عليه كلمتهم حين أفصح بتدبيره، وباح بسرّ ضميره، فمن فريق رجع إلى الأستندارية، وفريق إلى جرجان في طلب الأمان.

ورحل نصر في الباقين حتى أناخ بقومس، وسأل أبا علي بن حمويه تمكينه من بعض القلاع ليحصّن فيه عياله وأثقاله، فمكنّه من حصار جومند، فاستوطنه، وأودعه ماله ومن معه.

و لما أمن أبو علي شرّه وعاديته، توجّه نحو سارية على قصد جرجان، فلما اطمأن بها أسرى منوچهر بن شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى أبيه عائذا بالله من عقوقه، وكفران ما فرض الله عليه من حقوقه. فارتاب أبو علي من بيستون بن تيجاسب لاشتراكهما في نسبة الجيل، وأرومة ذلك القبيل. وأشفق من صغوه القديم في خدمة شمس المعالي، وحثّه إياه على معاودة سدّته، واهتبال الغرّة في مراجعة جملته. فأخذ بالحيطة في اعتقاله، وردّه إلى الريّ في وثاقه. وامتد إلى ظاهر جرجان مما يلي قبر الداعي فعسكر به، وتواصى أهل الحفاظ والحميّة، والأنفة الأبيّة، من أصحاب شمس

المعالي بالترافد في التجالد، والتساتل على التقاتل، والتماسك عند التعارك، وشدّوا حيازيمهم للقراع، وقرعوا ظنابيبهم للمصاع، وناصبوهم الحرب طرفي الصباح والرواح، لا يسأمون وقع الصفاح، ولا يألمون لذع الجراح، حتى غبر شهران كيوم واحد في مغامسة الكريهة، بين تكلف وبديهه.

ومسّ عسكر جرجان ضيقة لا نقطاع المير والمواد عنهم، فاستعصموا بالنفوس الشريفة، وتبلغوا طول تلك الأيام بالبلغ الخفيفة، مؤثرين شرف المقام على شبع الطعام، وردّ الشجاعة على سدّ المجاعة، وأصاب الآخرين تلك الضيقة، فانقلبوا من الفضاء بقبر الداعي إلى جانب محمدآباد، اتساعا في العلوفات من جهة چناشك، فتداركت عليهم الأمطار، حتى أعوزهم الامتيار، وماجت عليهم الأقطار بالطوفان، فتساقطت الخيام، وساخت القوائم والأقدام. وعند ذلك برز أنصار شمس المعالي أهل الحقائق من وراء الخنادق، وأجّجوا نار الوغى كضارية القشاعم، وداهية الأراقم. وثبت بعضهم للبعض من مطلع الفلق إلى مسقط الشفق، محكّمين متون الصوارم في شؤون الجماجم، وذوابل الصّعاد في مناهل الأكباد، وزرق الزانات في سواد المهجات، حتى إذا زلّت قدم العصر، أتى أمر الله بالنصر، فحمل الجيل على الديلم حملة لم تستبق منهم طالب ثأر، ولا نافخ نار، وأسر من عظمائهم أسفهسلار بن كورنكيج، وزرهوا، وجستان بن أشكلي، وأخوه حيدر بن سالار، ومحمد بن وهسودان. واشتملت المعركة على ألف وثلثمائة رجل ممن أضجعتهم الحتوف، وسطحتهم على الأرض السيوف. وأفاء الله على الجيل غنائم لا يستوعبها بيان، ولا يستثبتها بنان.

ثم رأى شمس المعالي أن يوعز بمداواة الجرحى، والفكّ عن الأسرى، وصرفهم وراءهم بالخلع والكرامات، والأحبية والصلات، شكرا لنعمة الله فيما أولاه، وإكبارا لقدر منّته في تحقيق ما رجاه.

وأنشدني أبو منصور الثعالبي أبياتًا له في ذكر هذا الفتح الذي نظمه الله في سلك أيامه، والحق الذي أقره منه في نصابه:

الفتح منتظم والدهر مبتسم ... وملك شمس المعالي كلّه نعم
والعدل منبسط والحقّ مرتجع ... والشّعب ملتئم والجور مصطلم
ألقت مقاليدها الدنيا إلى ملك ... مازال وقفا عليه المجد والكرم

شمس المعالي وغيث المشرقين ومن ... به يليق العلى والملك والحشم
هو الإمام هو القرم الهمام هو الـ ... ـبدر التمام هو الصمصام والقلم
هو الغمام الذي تخشى صواعقه ... قهرا وترجوا نداه العرب والعجم
هو المقيم وقد سارت مآثره ... كأن علياه من دنياه تنتظم
والماء من جوده المبذول منسكب ... والنار من بأسه المرهوب تضطرم
والأرض من صدره والريح من يده ... والروض من خلقه للخلق يبتسم
الله جارك يا من جار حضرته ... يلقى السعود عليه الدهر تزدحم
أبشر فقد جاء نصر الله مؤتنفا ... وعاشر الفتح منشورا له علم
يا من إذا اعتصمت صيد الملوك به ... أمسى وأصبح بالرحمن يعتصم
أبل الجديدين بالعمر الجديد ودم ... للملك يخدمك التوفيق والقسم

وأنشدني الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي لنفسه في ذلك:

لا تعصين شمس العلى قابوسا ... فمن عصى قابوس لاقى بؤسا

نعم، ولما بلغ أبو علي بن حمويه قومس منهزمه من تلك المعركة، أرسل إلى نصر بن الحسن بن فيروزان يسأله تعجيل اللحاق به ليتعاضدا على لمّ شعث الهزيمة، وسدّ ما جاش من منخر تلك الكشفة العظيمة. ثم أعجله الطلب عن التوقف والتلوّم؛ فأوجف نحو الريّ. وأتاه نصر فلم يلحقه، فاستوطن سمنان. وتابع كتبه إلى أبي طالب مجد الدولة رستم بن علي فخر الدولة مستمدا، وشمّر لتلافي الخلل الواقع مجدّا، فتراخت المدة على استئناف إمداده، واقتبال معونته وإنجاده، ثم أمدّ بابن بكتكين الحاجب في زهاء ستمائة من شجعان الغلمان، فقوي بهم، وتكثّر بمكانهم.

ورماه شمس المعالي ببايي بن سعيد في رجال من الجيل. وكتب إلى الاصبهبذ شهريار بن رستم بمعونته، وإزاحة علّته، فصمد صمد نصر، مرخيا عنان التحفّظ، ومغمضا جفون التيقظ. وقد كان نصر سدّ الطرق على أبنائها سترا لخبره، وسحبا لذيل الكتمان على أثره، فاتفقت إنافة بايي عليه على حين تقطّع من رجاله، وتفرّق من أكثر أصحابه، فتناوشا الحرب ساعة ونصر مستعد، وأمره في القراع جدّ. ثم اضطر بايي إلى الانقلاب على بارح الخيبة، وفشت الهزيمة بمن تلاحق به، وتراخى عنه من ذنابى

Obeikandi.com

عسكره، وجرى عليهم من القتل والأسر ما اعتدّ به نصر في مساعيه عند أبي طالب، فغسل به وجه حاله، وجلا عليه صفحة إقباله.

وأنهض عند ذلك رستم بن المرزبان خال مجد الدولة أبي طالب في ثلاثة آلاف رجل مددا لنصر، وعقدت له الاصبهبذية على جبل شهريار، فتلقاه نصر إلى دنباوند وساعده على صعوده، وامتلاك حدوده. ولجأ الاصبهبذ شهريار إلى سارية، وبها منوچهر بن شمس المعالي معتصرا بعقوته، ومعتصما بعروته، فأصاب أهل فرّيم غلاء عمّ بلاؤه، وشمل الكافة داؤه، وسببه بسط الأيدي بالغارات، وانتهاب ما أوعته الرعايا للأرماق من الأقوات، فاضطر نصر إلى الانصراف عن رستم بن المرزبان للقحط الشامل، والبلاء النازل، فلم ينهنه الاصبهبذ عند انقلابه أن ركض على رستم فأجلاه عنها إلى حد الري، منخوبا منكوبا، ومخذولا مفلولا، فصفت له ناحيته، وانحسمت عنه شذاة نصر وعاديته.

وكان أبو نصر بن محمود الحاجب قد ألجأه بعض المحن التي دهته إلى خدمة شمس المعالي، فمهد له كنفه، وحكم في اصطناعه شرفه، ووالى الصنائع والرغائب إليه، وملأ من الأموال يديه، وسهّل ركوب المطالب عليه، ثم رماه في وجه نصر بن الحسن بن فيروزان مزاح العلّة بقدر الكفاية، من ذوي البسالة والنكاية، فخفّ إليه بجأش ثبت، ووجه على الحادثات صلت، وأحرق عليه الأرض حربا بكرا على يده، وعوانا على أيدي أعوانه ومدده. ثم حمل على جموعه حملة شردتهم كل مشرّد، وطردتهم بين أعين البيد كل مطرد. وعلق في حبالة الأسر جستان بن الداعي، وابن هندو وغيرهما من أعيان القواد. واصطف على جدالة الحرب من القتلى ما شبعت به الضباع، بل سمنت عليه الوحوش الجياع. وانهزم نصر من بين يديه إلى سمنان في جمادى الآخرة سنة تسعين وثلثمائة.

وكان نصر على جلالة بيته، وفخامة عشيرته ورهطه، مغرما بالظلم، مغرى بالحيف والغشم. ووافقت ولايته مدرج الحجيج، زوّار البيت العظيم، وزمزم والحطيم، فشملهم عيثه في كل سنة بوجوه من المطالبات المختلفة، والمعاملات المجحفة، حتى انتشر عنه سوء الأحدوثة، وحبط عليه جمال تلك الجملة الموروثه.

ولعل عثار الزمان به عدوى ضجيج الحجيج عنه بالاستغاثة في حالتي الوقوف والإفاضة.

وواصل نصر الريّ بكتبه في الاستنفار، والاستنهاض من صرعة العثار، فمدّ له في طول التطويل، بأنواع التعليل والتأميل[1]:

مواعيد كما اختبّ سراب المهمه القفر فمن يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر

وبلغه بعد ذلك أن مجد الدولة أبا طالب وشمس المعالي قد تصالحا على احتيال تحصيله، والظفر به، فساء ظنا، وضاق بالأمر ذرعا، ونمي إليه أيضا أن بعض قواد السلطان يمين الدولة وأمين الملة- وكان يعرف بأرسلان هندوبچه والي قهستان- قد أوقع بأبي القاسم السيمجوري وأجلاه عنها إلى جنابذ، فأغذّ السير إليه على مظاهرته، والتحصن بمرافقته ومضافرته، وجعل يحطب في حبله، ويفتل في ذروته بحيله وختله، ويزيّن له قصد الري معه لامتلاكها على أبي طالب إيهاما لنغل النيات في طاعته، ودخن الأهواء في مشايعته، فاغتر أبو القاسم بتغريره، وانجرّ في جريره. وسار إلى خوار الري، فتلقّاه من سرعان الكتائب، من غصّ بهم لهوات تلك المخارم والمسارب.

ولما رأى أبو القاسم أن الأمر جدّ، والطريق منسدّ، خنس وراءه عاضا على البنان، منخزلا لعارض الحرمان. وبلغ شمس المعالي قابوس بن وشمكير انصرافه مع نصر على وجه الري، فقذفهما بعفاريت الأكراد من كل جانب، ودحرهم عن حدود مملكته بعذاب واصب. ولما رأيا أن الأرض تلفظهم يمينا وشمالا، وتنفيهم جنوبا وشمالا، تآمرا على قصد السلطان يمين الدولة وأمين الملة مستأمنين إليه، ومستعديين على الزمان بالمثول بين يديه، فيمّما عالي حضرته، وتوشحا بجمال خدمته، فأما أبو القاسم فهرب على ما سبق ذكره، إلى أن أودعه الحبس أسره، وأما نصر فأقام على الخدمة مدة إلى أن أمر السلطان بإقطاعه بيار وجومند طعمة له، فنهض إليهما.

و أبت عليه همته القناعة بهما، فلم يزل يضطرب في حبالته إلى أن خدع من الري، وحمل منها إلى قلعة أستوناوند، فجعلت عليه حصيرا، وساء ذلك مصيرا. ووكل شمس المعالي بعد ذلك بحوالي القلاع فيما بين جرجان واستراباد وما وراءها من أحاط بهم إحاطة الخلخال بأرساغ البعير، حتى افتتحها غيلة ومكيدة، ومراعاة لحقوق الاستسلام

---

(١) انظر: نهاية الأرب ٢٠٢/٢٧.

والتسليم وكيدة، فصفت له تلك الولاية بحدودها وحواشيها، وقلاعها وصياصيها، بما أعد من زبد الأحقاب فيها.

واتفق بعد ذلك إخلاء الاصبهبذ بجبل شهريار إلى جانب المجانبة في طاعة شمس المعالي قابوس، وادعاؤه الأمر لنفسه اغترارا بما اجتمع له من الوفر، والتفّ عليه من العدد الدثر، والعسكر المجر، فرمي من جانب الري بأبي علي رستم بن المرزبان خال أبي طالب، في صناديد الديلم، وفيهم بيستون بن تيجاسب المقبوض عليه من قبل في التظني بموالاة صاحبه قابوس بن وشمكير، فنصب له الحرب قراعا ومصاعا، وثقافا ونقافا. وكانت عاقبة أمره أن كسر فأسر، ونادى أبو علي رستم مكانه بشعار شمس المعالي لوحشة كان استشعرها من أهل الري، وأقام الخطبة فيها باسمه، وكاتبه بذكر طاعته، وشرح ما فتح الله له على يده. وهاجر أبو حرب بيستون ابن تيجاسب إلى أرضه المقدسة من فناء صاحبه وولي نعمته، فانشرح صدره، وقرّت بالإياب عينه، وطاب بالإحسان والإيناس عيشه، لو لم يعجله عن الحياة حينه.

و انضافت مملكة الجيل بأسرها إلى ممالك جرجان وطبرستان، فولّاها شمس المعالي منوچهر ابنه، سمي من لو عاش إلى زمانه، لردّ عليه عواري مفاخره، ورجع إليه حلي آثاره ومآثره. وانفتحت بعدها عليه رويان وشالوس وما وراءها من حدود الأستندارية، فصارت ولايته تشرق بنور العدل والإحسان، وتبسم عن ثغور الأمن والأمان.

وواصل شمس المعالي السلطان يمين الدولة وأمين الملة بكتبه ورسله في عقد وثيقة يتحصن بها من صروف النوائب، ويستظهر بها على وجوه المطالب. وقدم بين يدي نجواه من أنواع القرب والمبارّ، ما خرج عن الحدّ والمقدار، حتى تأكدت العصمة، وتأرّبت العقدة، واشتبكت الألفة، واستحكمت الثقة، وصارت جرجان وطبرستان إلى سواحل البحر وديار الديلم بحكم الحال المتّشجة، كإحدى ممالكه التي يحكم عليها آمرا وناهيا، ويتبسط فيها حاضرا وباديا، فلله شمس المعالي في همة له بين المجرة مجراها وفي بحار الكرم مجراها ومرساها، فلم يسمع في شيوخ الملوك بأشرف منه قيمة، وأوطف ديمة، وأكرم شيمة، وأصدق بارقة مشيمة، وأوفر عقلا وتحصيلا، وأظهر جملة وتفصيلا، وأغذى للنفس بعفاف الحكمة، وأجزى للبدن بكفاف الطعمة، قد فطم

النفس عن رضاع الملاهي، فلم يعرف اللهو ما هو، ولا البطالة ما هي، علما منه بأن الملك واللهو ضدان، وأن ليس لا لتقائهما يدان. ولقد أحسن أبو الفتح علي بن محمد البستي الكاتب في نصرة هذا الرأي بقوله[1]: [البسيط]

إذا غـدا ملـك بـاللهو مشـتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة لما غدا برج نجم اللهو والطرب

نعم، ولا أحرص على إنصاف الرعية، وآخذ بأطراف العدل في القضية، وأبرع في الآداب والحكم، وأجمع بين ذرابة السيف وذلاقة القلم، ورسائله موجودة في البلاد عند الأفراد، لكني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه، وزهرة من حدائق إحسانه، إذ كان في تصفحها ما يغني عن التكثر في هذا المكان بها، فمنها رسالة أنشأها في الترجيح بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعقب رسائله القديمة، وقرائنه اليتيمة، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن أصعب الأمور، وأشرفها بين الجمهور، هو الخروج بالنبوة، والاستعلاء على الخلق بهذه القوّة، لأنه تقليب الوجوه عن القبل المعبودة، وإدخال الأعناق في قلادة غير معهودة، ومخاطبة الخلق عن الخالق، خالق لا تدركه أبصار الخلائق. وقد اعتلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذروة هذا الشرف، وصار لمن سلف من الأنبياء صلوات الله عليهم خير الخلف. وفاز بمزية هذا الذكر العظيم، وأذاق العرب لذة النعيم، ونقلهم إلى الثروة والغنى من الفقر والفاقة، وأراحهم من رعاية الجمل والناقة، وليس وراءه لا بتغاء العلى أمد، فما فوق السماء للسمو مصعد.

ثم ضبط الأمر بعده زعيمه على نظامه، وإقامته في قوامه، وهذا ما تولاه أبو بكر رضي الله عنه حين ودّع عمره، من غير أن سلّم إلى أحد أمره، فإنه قام به قيام ثابت القلب، مستقل بمقاومة الخطب، غير مفكر في ردّ راد، ولا مبال بمعاداة معاند، حتى حمى حريم الدين، وجمع شمل المسلمين، ولم يرض بأن يلم ببيضة الشريعة ملم، ولا أن يتغير من أحكامها حكم، فلقب خليفة رسول الله لا نتدابه لحياطة دين الله، ثم

(١) انظر: يتيمة الدهر ٣٥٩/٤، ومعاهد التنصيص ٣٢٤/١، وزهر الآداب ٣٦٠/١.

تحصين حوزة الإسلام من عوارض الفساد، وعادية الأعداء والأضداد، والمجاهدة في استضافة ديار المخالفين، إلى جانب الإسلام ومجامع المسلمين.

وهو ما أتاه عمر رضي الله عنه لما آل إليه الأمر، فإنه صرف جدّه وجهده إلى الجهاد، وقصر وكده وكدّه على افتتاح البلاد، حتى اتسع نطاق هذه الملة، وخضعت الرقاب لأهل هذه القبلة، فلقب أمير المؤمنين، إذ كان نعم العون لرسول رب العالمين.

قد فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر الأعظم، والشأن الأفخم، وأطفأ لهيب كل ملتهب، على رغم من أبي لهب، والتأم بسعي الشيخين رضي الله عنهما شعب الأمرين الآخرين. وبلغ الإسلام من الإحكام مبلغا ليس فيه مستزاد، ولا يشين بياض غرّته سواد، ولم يبق للتابعين سوى التمسك بدين ممهّد، ومراعاة بناء مشيد، فلم يقدروا على القيام به، واحتجبوا وراء حجابه.

و لما أتت الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان منه ما كان من تبديل زي النسك بزينة الملك، وتغيير سيرة الأئمة حين توسع في النعمة، حتى اجتنى ثمرة ما جنى، وتيّه به سوء ما أتى.

ولما عادت إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين، هاجت الرياح من كل جانب، وبدت الأوابد، وتبدلت العقائد، وتحول أمر الدين ملك المغالبة، ودول القتال والمجاذبة، ووقعت الخلافة في الخلاف، وبرز الشرّ من الغلاف، وبقي علي رضي الله عنه على اضطراب لا يهدأ، وفي مداواة داء لا يبرأ، مع شجاعته المشهورة، ومآثره المأثورة، فانتهى أمره إلى ما انتهى، حتى جرى عليه وعلى عقبه ما جرى. فلينظر إذا كان الأمر كذلك، أهؤلاء أحق بالقدح أم أولئك، قد مضى القوم وآثارهم في الإسلام كالشمس في الاشتهار، والهباء في الانتشار، وصنيعهم صائح بحي علي الفلاح، وليس بأيدي الخصماء سوى السفاهة والصياح.

وقرأت توقيعا له إلى بعض الأفاضل يستقدمه حضرته، ليتوخى مسرته: «محال لمن سمت به همته إلى قصد من تغلو عنده قيمته، أن يكون على غيره عرجته، ولبيت من سواه زيارته وحجته».

وأما خطّه فخطة المحاسن، فسمّه إن شئت وشيا محوكا، أو تبرا مسبوكا، أو درا مفصّلا، أو سحرا محصّلا. وكان إسماعيل بن عباد إذا قرأ خطه يقول: هذا خط قابوس أم جناح طاووس؟ فهو كما قال المتنبي[1]: [الكامل]

فـي خَطِّـهِ مِـن كُـلِّ قَلـبٍ شَـهوَةٌ حَتّـى كَـأَنَّ مِـدادَهُ الأهـواءُ
ولكـل عـين قـرّة فـي قربـه حتـى كـأن مغيبـه الأقـذاء

(١) انظر: جوهر الكنز ١/١٥٥، ويتيمة الدهر ١/٢١٦.

obeikandl.com

ذكر الحال التي انعقدت بين السلطان يمين الدولة وأمين الملة وبين أيلك الخان في التواصل والتضافر، والتعاقد على التعاون والتظاهر، إلى أن خلعت بهجة البشر وكشرت عن أعصل الشر

قد كان أيلك الخان لما ملك السلطان خراسان على الغدرة بآل سامان، اغتنم تطهير ما وراء النهر عن كل منتسب إلى تلك الأرومة، ومتشبث بشعب تلك الجرثومة، فلم يدع هناك ذا ظفر إلا قلمه، ولا ذا حد إلا اجتاحه واصطلمه. ثم كاتب السلطان مهنئا له بما ذخر الله له من خالصة الملك، وصافية الملك، وظاهر إليه من ظاهرة العزّ وباطنة الصنع، ومعتدا لنفسه بما قطفه من عنقود رجائه ملاوة على صفقة إقباله، وعلاوة على جماله وجلاله. وتردد السفراء بينهما في وصلة تبلّ رحم الحال، وتؤكد أسباب المودة والوصال، وتحمي حرائم الثقة في الجانبين، وترفع ستر الحشمة في ذات البين، وتؤدي رتبة الاختلاط إلى الامتزاج، وقربة الاشتباك إلى الاتشاج، فتصير النفوس واحدة، والسواعد على وجوه مصالحها متساعدة. وأنهض السلطان عند إلمامه بنيسابور في طلب المنتصر أبي إبراهيم أبا الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصّعلوكي إمام أهل الحديث بها، رسولا إلى أيلك الخان، وضم إليه طغانجق والي سرخس في خطبة كريمته عليه، ونقلها في صحبته إليه. وأصحبه ما عدا العدّ والحدّ من سبائك العقيان، ويواقيت البهرمان، وعقائل الدرّ والمرجان، وتخوت الوشي والحبر، ونوادر البدو والحضر، وصواني الذهب مملوءة من بيضات العنبر، وأواني الفضة منضودة بشمّامات الكافور، وغير ذلك من شارات الهنود، وقطاع العود، وذكور النصول، وإناث الفيول، تحت حدوج مغشاة بذوات التعاريج من ألوان الدبابيج، منطّقة بعصائب يخطف العيون بريقها، وتصطخب على الأقتاب معاليقها، وعتاق ضوامر كالقداح، بخدود كمتون الصّفاح، وغرر كنجوم الصباح، وقوائم كمنخرق الرياح، وسنابك كفلق الصّفاح، في مراكب كأنما حلّي بعضها بقطع عقيق، أو شعل حريق، وحلّي سائرها بنجوم الثريا والنّثرة، وبنات نعش من وراء المجرة. وقرن ذلك كله بأموال على سبيل الألطاف، تغمر ذوائب الأوصاف.

فسار الإمام أبو الطيب سهل بن محمد إلى أيلك الخان، كريما ينقل كريمة، ويحمل من بحر الترك إلى أرض إيران درة يتيمة. فطلع على أيلك الخان، وأهل بيته

طلوع الحميم طاب إيابه، بعد أن طال اغترابه، والحبيب لطف إعتابه بعد أن قدم هجره واجتنابه، إعظاما منهم لقدر وفادته عن باب السلطان، في ذلك المهمّ من الشأن، ثم لفضله في نفسه، فهو الإمام المقدم، والصدر المحتشم، ومن لا يقرب إلى ربابته ضريب له في أبواب الفضائل، وخصوصا في خلافيات المسائل.

وأقام بأوزكند إلى أن فرغ من أمر الزفاف، وأزيحت علته في الانصراف، فعاد على جناح النجاح مصحوبا بمجلوبات الترك من نقر المعادن، ونوافج المسك، وقود المراكب، وعيس الركائب، ورؤد الوصفاء والوصائف، وبيض البزاة، وسود الأوبار، ونصب الختوّ، وأحجار اليشب، وطرائف الصين.

واتحدت الحال بين السلطان يمين الدولة وأمين الملة وبين أيلك الخان اتحادا اشترك فيه المراتع والنعم، واستهم فيه الصنائع والخدم، وبقيت على جملتها في التأحّد والتأكّد إلى أن نزغ الشيطان بينهما، فنغلت الضمائر، وانحلّت القوى والمرائر، وتولى السيف تدبير ذلك الوصال، فحلّ معقوده وفصل مسروده. وسيأتي الشرح على الوقائع التي جرت بينهما في موضعها على الأثر إن شاء الله تعالى.

فأما الآن فإني أشير إلى نبذ من محاسن هذا الشيخ السفير، والكافل في الأمر بالتدبير، وأتبعه بذكر رجالات خراسان، من أعيان رعايا السلطان يمين الدولة وأمين الملة، ووجوه الفضل من أوليائه. فمن منثور كلامه، قوله: «من تصدّر قبل أوانه، فقد تصدّى لهوانه»، يشير إلى قول منصور الفقيه[1]:

الكلب أعلى همة ... وهو النهاية في الخساسة
ممن ينافس في الرئاسة ... قبل أوقات الرئاسة

وقوله: «العقل أطيب عيش، والعدل أغلب جيش»، وقوله: «إذا كان رضا الخلق معسورا لا يدرك، فإن ميسوره لا يترك»، و قوله: «إنما يحتاج إلى إخوان العشرة لزمان العسرة»، وقوله: «من تغافل عنك مع علمه بحاجتك إلى عونه وتوقيره، طلب عليك علة إذا عاتبته على تقصيره»، كأنه ألمّ بقول القائل:

توقّ الناس يا ابن أبي وأمي ... فهم تبع المخافة والرجاء

---

(١) انظر: زهر الأداب ١١٨/٢، ومعجم الأدباء ٤٨١/٢.

obeikandi.com

ألم تر مظهرين علي عتبا ... وكانوا أمس إخوان الصفاء
بليت بنكبة فغدوا وراحوا ... علي أشد أسباب البلاء
أبت أقدارهم أن ينصروني ... بمال أو بجاه أو براء
وخافوا أن يقال لهم خذلتم ... صديقا فادعوا قدم الجفاء

ولبعض أهل العصر فيه[1]:

كلام الإمام إمام الكلام ... وفوه يفوه بحرّ النظام
مزاج معانيه في نظمها ... مزاج المدام بماء الغمام

وله فيه:

ألا أيها الشيخ الجليل ومن به ... تبلّج أفق الدهر عن فلق البشر
لئن كنت في الدنيا وأنت وشاحها ... عيانا فإن الدرّ في صدف البحر
ولم تحوك الدنيا لأنك دونها ... ولكن لبّ الشيء يحصن بالقشر
وقد صين نصل السيف تحت قرابه ... كما صين نور العين بالجفن والشفر

ومن أعيان رعايا السلطان بنيسابور: أبو نصر أحمد بن علي بن إسماعيل الميكالي، وهو صنيعة السلطان، وشيخ مملكته وجمال جملته فضلا موفورا، وأدبا مشهورا، وعزا معقودا، ومالا ممدودا، ورأيا كالأري مشارا، وحزما كالمرائر مغارا، ودهاء يسلخ الليل البهيم نهارا، ونظرا يستشف أستار المصائر فيستكشف أسرار الضمائر، وشعرا نقي السّنخ والجوهر، ذكي المسك والعنبر، رضي المورد والمصدر، فمنه قوله[2]: [الكامل]

باني العلى والمجد والإحسان ... والفضل والمعروف أكرم بان
ليس البناء مشيدا لك شيده ... مثل البناء يشاد بالإحسان
البرّ أكرم ما حوته حقيبة ... والشكر أفضل ما حوته يدان
وإذا الكريم مضى وولى عمره ... كفل الثناء له بعمر ثاني

(١) انظر: نفحة الريحانة ١/٢٩٤.

(٢) انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٢/٥٢، وخزانة الأدب ١/٣٠٣، ونسبه لأبي نصر الميكالي.

فأما كتابته فالسحر الحلال، والعذب الزلال، فهي تحكي بما تحويه من لطف العبارة، وحسن الاستعارة، ومعسول الإشارة والشارة، رياض ميثاء إلى القرارة. ومن منثور كلامه ورسائله، ما كتب به إلى شمس المعالي قابوس بن وشمكير، أقرأنيه كاتبه:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب العبد، وحاله فيما يديمه له مولاه من شرف إقباله ورضاه، ويفيضه عليه من ملابس فضله ونعماه، حال من تقبل عليه دنياه، ويسعد في ظل دولته بأولاه وأخراه، والحمد لله رب العالمين.

وصل كتاب الأمير موشحًا بدرر خطابه، وغرر إيجابه، وبدائع برّه وأفضاله، وروائع أنعامه وإشباله، فيما أكرمني به من عزّ العيادة، وألبسنيه من حلل الفوز والسعادة، وشرّفني به من التهنئة على العافية المستفادة، فأوصل عزا يبقى على الأيام أثره، ولا يخلق على مرّ الزمان ذكره ومفخره. وفهمه العبد فهم من آنس منه رشدا، واقتبس من أثنائه قوة وأيدا، وسجد لله شكرا على ما أفاضه عليه من سجال السلامة، ومدّ عليه من ظلال الفضل والكرامة، ورغب إليه في إسباغ العوارف عليه، وإسداء العوائد لديه، وصرف المحاذر عن حضرته، وكر المكاره عن فنائه وساحته، فأما ما أهّل الأمير العبد له من شريف كتابه، ولطيف خطابه، ورقّاه إليه من درجة العيادة أولا، ومنزلة التهنئة ثانيا، وإنفاذ القاصد به ثالثا، فإن ذلك من نتائج همته العالية، ودواعي شيمته الزاكية، التي تحنوه على أوليائه وخدمه، وتعطفه على أغذياء نعمه، فليس له في مقابلة ما أولاه، ومعارضة ما كساه، إلا الشكر يديمه، والنشر يقيمه، والرغبة إلى الله تعالى يخلصها في إطالة بقائه، وإدامة عزه وعلائه، وإنهاضه بمواجب خدمته، ومعرفة قدر نعمته بمنّه ورحمته. هذا ولو كان ملك العبد في مقابلة هذه النعمة- على جلالة قدرها، ونباهة خطرها وذكرها- غير بذل المهجة والقرينة في الطاعة، واستنفاذ الوسع والطاقة غاية لبلغها تقربا إلى حقوقه بما يقتضيها، ويؤدي شرط العبودية فيها، وحكم على نفسه بالعجز والتقصير معها، وإذ قد حرم المراد فما يتمسك إلا بالرغبة إلى الله تعالى في أن يتولى من مكافأته بما لا يسمح به إلا يده، ولا يفي به إلا مجده، فهذا هو الكلام الذي

ليس به عثار، ولا عليه غبار، قد ولي الفضل تحبيره، وملك العقل رسمه وتصويره، والقليل منه على الكثير دليل، وكلام الجليل كقدره جليل[١]:

قَلِيلٌ مِنْكَ يَكْفِينِي ولَكِنْ ... قَلِيلُكَ لا يُقَالُ لَه قَلِيلُ

وقد أكثر الشعراء في مدحه، لكني أثبت أبياتًا للخوارزمي فيه من قصيدة أولها:

زفّ المنام إليّ طيف خياله ... لو أن طيفًا كان من أبداله
ولو أن هذا الدهر يشكر لم يدع ... شكر الأمير وقد غدا من آله
لا ينشف الإلحاح نائله ولا ... سؤل امرىء ينهاه عن إسآله
الوفر عند نواله والنيل عند ... سؤاله والموت عند صياله
والخلق من سؤّاله والجود من ... عذاله والدهر من عماله
وفعاله كمقاله وشماله ... كيمينه ويمينه كشماله
تتجمّع الآمال في أمواله ... فيفرّق الأموال في آماله
لا علم إلا عزّه في عزّه ... لا حلم إلا حاله من حاله
وله علوم لو قسمن على الورى ... ما زاد عاقله على جهّاله
وخلائق لو أنهن كواكب ... أضحى السّها في الضوء مثل هلاله
وفصول قول هنّ أعذب مسمعا ... من راحة المشغول من أشغاله
يخطرن بين سخائه وسنائه ... وبيهن.... وكماله
سمح البديهة ليس يمسك لفظه ... فكأنما ألفاظه من ماله
وكأنما عزماته وسيوفه ... من حدهنّ خلقن من إقباله
متبسم في الخطب تحسب أنه ... من حسنه متلثم بفعاله
هبني وفيت بحمده عن فضله ... من ذا يفي بالشكر عن أفضاله

وله أيضا من قصيدة أولها:

تلك الديار فريسة الأحقاب ... صنعت بعيني صنع ساكنها بي
وإلى الأمير ابن الأمير تهافتت ... رزحى الركاب برازحي الركاب
لبسوا الدجى لبس الغراب لريشه ... وغدوا لحاجتهم غدو غراب

(١) انظر: معاهد التنصيص ٣٣٩/١، والمنصف من الكلام ٥٢/٢.

والفجر يطرف والظلام كأنه ... فضلات عتب في خلال عتاب
طلبوا امرأ أفعاله محسوبة ... ونواله فوضى بغير حساب
غدت المدائح وهي أسماء له ... ولغيره أصبحن كالألقاب
والمكرمات كثيرة الخطّاب إلا ... أنها تأبى على الخطّاب
متبسّم الحجّاب مكتئب العدى ... مثري النديم مجازف الحسّاب
شيم أرقّ من الهوى وألذّ من ... خطأ العدوّ رددته بصواب
وعزائم لو كن يوما أسهما ... لنفذن في الأيام غير نوابي
مائية الحركات إلا أنها ... نارية الإقدام والإلهاب
يخطرن بين سياسة ورئاسة ... ويتهن بين مثوبة وعقاب
قد أصبحت ألفاظه صور النهى ... وقوالب الأسماع والألباب
وإذا حللت له جنابا واحدا ... حلّ المؤمّل منك ألف جناب

وما آل ميكال إلا كما قاله أبو الطمحان القينى[1]: [الطويل]

وإني من القوم الذين هم هم ... إذا مات منا سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب ... بدا كوكب تأوي إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

---

(١) انظر: خزانة الأدب ٣٠٩/٨.

أبو الطَمحان القَيني: (٤٥ ق. هـ - ٣٠ هـ / ٥٧٨ - ٦٥٠ م): وهو حنظلة بن شرقي، أحد بني القين، من قضاعة. شاعر، فارس، معمر، مخضرم عاش في الجاهلية، وكان فيها من عشراء الزبير بن عبد المطلب، وهو ترب له، أدرك الإسلام وأسلم ولم ير النبي (صلى الله عليه وسلم). وقيل في اسمه ونسبه: ربيعة بن عوف بن غنم بن كنانة بن القين بن جسر.

وفي الأغاني: كان خبيث الدين جيد الشعر.

يروى أنه جاور بني جديلة (من طيء) فوقعت حرب بينهم وبين بني الغوث عرفت (بحرب الفساد) فأسر فيها أبو الطمحان فمدح في شعره بجير بن أوس بن حارثة فاشتراه وأعتقه.

ارتكب جناية فطلبه الحاكم ففر ثم لجأ إلى مالك بن سعد أحد بني شميخ من فزارة فأجاره وآواه وأكرمه إلى أن مات.

الطمحان فعلان، من طمح بأنفه وبصره إذا تكبر، والقين: الحداد، وكل صانع قين، والقين أيضا: مواضع القيد من البعير.

ومـازال منـا حيـث كـان مسـوّد تسـير المنايـا حيـث سـارت كتائبـه

ومما يعد من مفاخره نجيبان له: أبو الفضل وأبو إبراهيم، عبيد الله وإسماعيل ابنا أحمد. كل منهما بدر في ضيائه وعلائه، وبحر في تياره ونمائه، غير أن أبا الفضل أبرع في لطائف الأدب، وأنظم لقلائد العرب. وقد سار له من النظم والنثر ما يزري حبره بوشي صنعاء، وزهره بروض شهباء.

فمن فصول كلامه:

«وصل كتاب الشيخ فأذعنت القلوب لفضله بالاعتراف، واختلفت الألسنة في وصفه ببدائع الأوصاف، فمن مدّع أنه رقية الوصل، وريقة النحل، ومنتحل أنه عقد النحر، وعقد السحر، وسمط الدرّ، وقائل هو سلاف العنقود، ونظم العقود، فأما أنا فتركت التمثيل، وسلكت التحصيل، وقلت: هو سماء فضل جادت بصوب الحكم، ووشي طبع حاكه سنّ القلم، ونسيم خلق تنفّس عنه روض الكرم».

و أيضا له:

«وصل كتابك فكان أحسن من روض الربيع، وريط الوشي الصنيع، فلقيته بحلبة الإحسان والإبداع، وحيلة النواظر والأسماع، ومسنّ الخواطر والطباع، وصيقل الأفكار والألباب، وعيار المعارف والآداب، واجتليت منه تميمة فضل، ويتيمة مجد، وثمينة عقد، ولطيمة خلق، وغنيمة برّ، يجلو صفحة العهد، ويجيل قدح الأنس، ويجلّ عن قدر الشكر، كلام أعذب من فرات المطر، وأعبق من فتات المسك والعنبر، يزري بنور الخمائل، وقد عطّرتها أنفاس الشمائل».

ومن منثور ألفاظه:

أخلاقك قد أخذت من الورد عرفه، ومن الندّ عبقه، أخلاق هي المسك لو لا فارته، والورد لو لا مرارته، والماء لو لا إسراعه إلى الكدر، والروض لو لا حاجته إلى المطر، ووجه البدر لو لا محاقه، والمشتري لو لا احتراقه.

هو عار من العوراء، كأس من العلاء، وله الشرف اليفاع، والأمر المطاع، والعرض المصون والمال المضاع، وله النوال السكب، والرأي العضب، ومنه الإباء المرّ والكرم

العذب. هو واحد البشر، وثاني المطر، وثالث الشمس والقمر، ورابع المسك والعود والعنبر.

لهفي على دهر الحداثة إذ غصن شبابي غض وريق، ونقل شرابي عض، وريق.

النعمة عروس مهرها الشكر، وثوب صوانه النشر، النعمة عنده تكتسي من لؤمه أطمارا، وتشتكي غربة وأسارا.

ولى المغرور يرسف من الرعب في حلق، ويجري مع الريح في طلق، دارت رحى الحرب بين أعمار تباح، ودماء تستباح، وأجسام تطاح، وأرواح تسفي بها الرياح.

فالسيوف للهامات دامغة، والرماح في الأكباد والغة.

ومن نظمه، قوله[١]: [الطويل]

لقد راعني بدر الدجى بصدوده ... ووكّل أجفاني برعي كواكبه

فيا جزعي مهلا عساه يعود لي ... ويا كبدي صبرا على ما كواك به

وقوله:

ضاق صدري في هوى قمر ... قمر القلب وما شعرا

ليت أجفاني به سعدت ... فترى الجفن الذي فترا

وقوله[٢]: [الطويل]

تفرق قلبي في هواه فعنده ... فريق وعندي شعبة وفريق

إذا ظمئت نفسي أقول له اسقني ... فإن لم يكن راح لديك فريق

وقوله[٣]: [المجتث]

أنكرت من أدمعي ... تترى سواكبها

سلي جفوني هل ... أبكي سواك بها

وقوله[٤]: [الخفيف]

إن لي في الهوى لسانا كتوما ... وفؤادا يخفي حريق جواه

---

(١) انظر: جوهر الكنز ١/١٠٠، ويتيمة الدهر ٤/٤٢٥، ومعاهد التنصيص ١/٣٢٦.

(٢) انظر: زهر الأداب ٢/٣٣٢.

(٣) انظر: يتيمة الدهر ٤/٤٢٥.

(٤) انظر: زهر الأداب ١/٣٤١، ويتيمة الدهر ٢/١٠٤، ومعاهد التنصيص ١/٣٤٥.

غير أني أخاف دمعي عليه ستراه يفشي الذي ستراه

وقوله[(١)]:

لنا صديق إن رأى مهفهفا لا طفه

فإن يكن في دهرنا ذو أبنة لاط فهو

وقوله[(٢)]:

لا تصبحنّ بالحياة ذا ثقة فكل نفس للمنون ذائقة

وقوله[(٣)]:

وكل غني يتيه به غنّي فمرتجع بموت أو زوال

وهب جدي زوى لي الأرض طرا أليس الموت يزوي ما زوى لي

(١) انظر: الديوان ١/١١٦.
(٢) انظر: الديوان ١/١٢٤.
(٣) انظر: الديوان ١/١٥٦.

obeikandl.com

ومن أعيان رعايا السلطان بناحية طوس، وإن كانت نيسابور دار قراره، ومعتقد ضياعه وعقاره:

أبو جعفر محمد بن موسى بن أحمد بن القاسم بن حمزة بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين

[ومن الكامل[1]]

نسب كأن عليه من شمس الضحى نـورا ومـن فلـق الصـباح عمـودا

وقد خدم ملوك آل سامان، وعاشر وزراءهم وكتّابهم، والتقط محاسنهم وآدابهم، فألفاظه ينابيع العلوم، وأقواله مرابيع العقول، ومجالسه حدائق الجدّ والهزل، وجوامع الكلم الفصل، فلم تبق يتيمة خطاب، ولا كريمة صواب، ولا غرّة حكمة، ولا درة نكتة، ولا طرفة حكاية، ولا فقرة رواية، إلا وهي عرضة خاطره، وثمرة هاجسه، ونصب تذكّره، ومثال تصوّره، ولا تصدأ صفيحة حفظه، ولا تدرس صحيفة ذكره، ولا يكسف بدر معارفه، ولا ينزف بحر لطائفه. ثم هو واحد خراسان من بين الأشراف العلوية في قوة الحال، وسعة المجال، واتساع رقعة الضياع، وارتفاع قدر الارتفاع، واشتداد باع العزّ، وامتداد شعاع الجاه والقدر. وقد كتبت عنه من نوادر الأخبار والأشعار، ما حكيت بعضه في كتابي الموسوم بـ(لطائف الكتّاب). وسأورد الآن نكتًا مما قاله، وقيل: فيه إبانة عن غرر معاليه. فمن شعره، قوله:

وشـادن وجهـه بالحسـن مخطـوط وخـــده بمـــداد الخـــال منقـــوط

تـراه قـد جمـع الضـدّين فـي قـرن فالخصـر مختصـر والـردف مبسـوط

لـو كـان أدركـه لـوط النبـي لمـا نهـى لنـا أبـدا عـن مثلـه لـوط

وقوله:

فـديت غزالـي فهـو ملكـي حقيقـة بلـد بـه عيشـي إذا نـابني هـمّ

جميـل محيّـاه وكالـدعص ردفـه لطيـف سـجاياه فلـيس لـه خصـم

وسمعته يقول: حال الجاهل في التدبير، كحال الحمير، ما لها همة غير اعتلاف التبن، وإتيان الأتن.

---

(١) البيت لأبي تمام انظر: الديوان ٢٩٥/١، وعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ٢٨٢/٣.

وجرى حديث الوقود والشمس في الشتاء، فقال: مرعى ولا كسعدان، هيهات أين تقع الأم الرابة من الأم البارة. يعني أن الوقود يلفح ما قابل البدن بشرره، ويدع سائره على خصره. فأما الشمس فإنها تقسم الدفء على البدن بالسواء، ليشترك فيه ظاهر الأعضاء وباطن الأحشاء

وقد أكثر الشعراء والأدباء فيه، فمن ذلك قول البستي علي بن محمد الكاتب رحمه الله:

أنا للسيد الشريف غلام ... حيث ما كان فليبلّغ سلامي
وإذا كنت للشريف غلاما ... فأنا الحرّ والزمان غلامي

ولأبي الفضل الهمذاني المعروف بالبديع رحمه الله[1]: [مجزوء الكامل]

أنا في اعتقادي للتسنّ ... ـن رافضي في ولائك
وإن اشتغلت بهؤلا ... ء فلست أغفل عن أولئك
يا عقد منتظم النبوة ... بيت مختلف الملائك
يا ابن الفواطم والعواتك ... والترائك والأرائك
أنا حائك إن لم أكن ... عبدا لعبدك وابن حائك

ولبعض أهل العصر فيه:

عيد البرية عيد المهرجان أتى ... أهلا بعيد أتى عيدا يحييه
العيد لألاؤه يبقى إلى أمد ... وعيدنا دائم اللألاء باقيه
لا زال سيدنا في ظل دولته ... وظله دانيا ممن يواليه
محكّما في رقاب الأرض قدرته ... يجني له ثمر الإقبال جانيه
أعشاره المجد والعليا جلائبه ... خراجه الدهر والدنيا جواليه

وبنى بنيسابور دارًا، فتنافس أهل العصر في ذكر بنائها، ووصف شرفها وسنائها. فمن ذلك قول البديع الهمذاني:

دار قسمت عراصها ... تحكي الأباطح والرصافة
بين المروءة والنبوة ... والخلافة والضيافة

(١) انظر: الديوان ١/١٦٨.

فيهـــا المصـــاحف والمعـــازف والســـــــوالف والســـــــلافة
لازلـــــت يـــــا دار الكـــــرا م مصـــــونة عـــــن كـــــل آفـــــة

وفيها لأبي عبد الله الغواص[1]: [الكامل]

يـا دار سـعد قـد علـت شـرفاتها بنيـــت شـــبيهة قبلـــة للنـــاس
لـــورود وفـــد أو لكشـــف ملمـــة أو بـــذل مـــال أو إدارة كـــأس

(١) انظر: يتيمة الدهر ٤/٥١٠، ومعاهد التنصيص ١/٢٤٥

obeikandl.com

ومن أفاضل أعيان العلوية:

أبو البركات علي بن الحسين بن علي بن جعفر ابن محمد، وهو الملقب بجور بن الحسين بن علي، وهو الملقب بالديباج، المدفون بجرجان، ابن جعفر بن محمد، الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضوان الله عليهم أجمعين.

نسب توارث كابرًا عن كابر كالرمح أنبوبا على أنبوب
واري النجابة لا يكون تمامها لنجيب قوم ليس بابن نجيب

قد جمع الله له بين ديباجتي النظم والنثر، فنثره منثور الرياض جادتها السحائب، ونظمه منظوم العقود زانتها النحور والترائب، فمن نثره فصل له:

«أحب أن تكون مكاتبتي للأمير أنفا لم ترتع، وبكرا لم تفترع، وسائبة لا تركب ولا تحلب، فلا أشوبها بأرب، ولا أتسبّب إليها بسبب، فعل من لا يشين ولاءه طمع، ولا يشوب دعواه عنت ولا طبع، على أن الاضطرار يغبّر في وجه الاختيار، والعذر فيه مقبول عند ذوي الأخطار والأحرار، وفلان يمسّني بحق الجوار، ولقد نشر جرائد شكره، وأظهر بحسن النشر خبايا برّه، فملأ الأرض ثناء، والسماء دعاء. وعادة الأمير أن يحيي الآمال، ويسترق الأحرار، فليجعل متكرما هذا الآمل محظوظا، ولا يجعله محطوطا».

وله أيضا:

«رقعتي هذه وأنا عائد معود، وقاصد بالزيارة مقصود، أخاطب أصدقائي بما أخاطب، وأكاتب إخواني بما أكاتب، سمائي وقدة، وأرضي رعدة، تنتابني الحمّى، ولا تفارقني الشكوى، نفسي نفسان، ونفسي نفسان، كأن الحول شاطرني فصوله، فنلت غرّته وحجوله، فالربيع بين عيني وخيشومي، والصيف كامن بين صدري وحلقومي، وما عرفت لعلتي هذه سببًا إلا إني رأيت نفس الحرية متشكية، فشاركتها في شكواها، ووجدت عين الكرم والكمال متأذية، فاحتملت عنها أذاها، وقلت ممتثلا لا متمثلا[1]: [الكامل]

(١) البيت لكثير عزة، انظر: الديوان ٣١١/١، وزهر الأداب ٣٣٠/١.

ونعـــود ســـيدنا وســـيد غيرنـــا | ليـــت التشـــكي كـــان بـــالعواد

ثم ذكرت ما أعدّ الله تعالى للعباد، من ثواب العلة في المعاد، فاستصغرت عند ذلك ما استعظمته، وسهل مسلكي وإن استوعرته، وقلت: مسح الله تلك النسمة من العلة، وأعطي الشيخ بها أمانا من القلة، وأعمي عنه ناظر الزمان، ولا طرّق إلى فنائه طوارق الحدثان، وتمنيت أني واصلت غدوي برواحي في زيارة الشيخ، مشاهدا للحال، وإقباله نحو البرء والإبلال، وقد حيل بين العير والنزوان، وعلى حالتي هذه فإني أستريح إلى خبر سلامته، وأحصل لنفسي منّة، وله- أيده الله- بإهدائه إليّ يد ومنّة، ورأيه في إتحافي به موفق إن شاء الله تعالى».

ومن نظمه قوله(١): [الطويل]

وأغيـــد ســـحّار بألحـــاظ عينـــه | حكـى لـي تثنّيـه مـن البـان أملـودا

سـلخت بـذكراه عـن الصبح ليلـة | أسـامره والكـأس والنـاي والعـودا

ترى أنجم الجوزاء والنجم فوقها | كباســـط كفيـــه ليقطـــف عنقـــودا

وكتب إلى أبي بكر الخوارزمي:

لـــئن كـــان ذنبـــي أنـــي اعتللـــت | فـــذلك ذنـــب صـــغير صـــغير

وإن كـــان هجـــري مـــن أجلـــه | فـــذلك ظلـــم كبيـــر كبيـــر

صـــدودك عنـــي صـــدود الحيـــاة | وصـــدّ ســـواك يســـير يســـير

فزرنـــي قلـــيلا تجـــد شـــاكرا | لديـــه القليـــل كثيـــر كثيـــر

=

كثير عزة: (٤٠ - ١٠٥ هـ / ٦٦٠ - ٧٢٣ م) وهو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن مليح من خزاعة وأمه جمعة بنت الأشيم الخزاعية. شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر ولد في آخر خلافة يزيد بن عبد الملك، وتوفي والده وهو صغير السن وكان منذ صغره سليط اللسان وكفله عمه بعد موت أبيه وكلفه رعي قطيع له من الإبل حتى يحميه من طيشه وملازمته سفهاء المدينة. واشتهر بحبه لعزة فعرف بها وعرفت به وهي: عزة بنت حُميل بن حفص من بني حاجب بن غفار كنانية النسب كناها كثير في شعره بأم عمرو ويسميها تارة الضميريّة وابنة الضمري نسبة إلى بني ضمرة. وسافر إلى مصر حيث دار عزة بعد زواجها وفيها صديقه عبد العزيز بن مروان الذي وجد عنده المكانة ويسر العيش. وتوفي في الحجاز هو وعكرمة مولى ابن عباس في نفس اليوم فقيل: (مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس).

(١) انظر: يتيمة الدهر ٤/٤٨٥.

وله في وصف اللقانق:

فإن كنت تهوى اليوم أكل اللقانق ... فبادر إلى أمثال جيد الغرانق
إلى جامع اللذات طيبا وجودة ... قضى حقه طاه بصنعه حاذق
تراه على السّفّود عند صلائه ... كزنجية زينت بحلي المخانق
فبعض تدلى كالوشاح وبعضه ... منوط عليه في محلّ المناطق
فانجح لقيت الخير في حاجة امرئ ... وفي بشرط الود غير مماذق

ومن أفاضل أضرابهم:

القاضي أبو القاسم علي بن الحسن الداودي بهراة.

وهو عندي ممن يستحق أن يقال فيه، ما قاله الصاحب لبعض من كان يواليه: لو لا أن قدرة الله عندي جنس واحد، لقلت ليس في القدرة وجود مثله، في كماله وفضله. جاوز السبعين، وناهز الثمانين، واحد الأنام منثورا ومنظوما، وثاني الغمام معقولا ومعلوما، شب للعلم خادما، وشاب على العلى مخدوما. فمن منثور كلامه، فصل له من كتاب:

«وصلت ملطفة الشيخ فلطفت لغليل برّدته، ووجه بصبغ الارتياح ورّدته، بخبر سلامته التي نسميها عندي نسيم الجنان، والوسيلة إلى السلوان».

وله فصل:

«كيف لا أعتد بصنع الله لي في نخيلة ودّه، وعقيلة عهده، وقد قبلني في الله أخا حين عزّ الإخاء، وعدم من بين الأودّاء الوفاء، وكاد لا يصدق في وجودهما رائد، ولا يظفر بهما مضل ولا ناشد، وأصبحت المصافاة مخاتلة ومخاترة، والمخالصة مكاشرة ومناحرة. وقد كان المتحابون في الله أقل من القليل، والإسلام عليه رونق الشبيبة، وهو في بردته القشيبة».

وله فصل من كتاب:

«كلامي في مخاطبة الشيخ مماثل لا نعكاس شعاع الناظر، وردّ الفوارة ماء الغمام الماطر، على المذهب الذي ذكره علي بن الجهم في صفة الفوّارة[1]:

---

(١) انظر: نهاية الأرب ١/٢٦٩.

تــردّ علــى المــزن مــا أسـبلت ... على الأرض من صوب أمطارها»

وله من فصل:

«كان كل مجلس من مجالسه للأنس مزوّقًا، وللازديار مشوّقًا، فكان مرويًا مظمئًا، وموقدًا مطفئًا».

ومما أنشدت له من قلائد شعره وإن كان كالحصى تمثيلا، قوله[1]: [الخفيف]

ربّمـــا قصّـــر الصــديق المقـــلّ ... عـــن حقـــوق بهـــن لا يســـتقلّ

و لـــئن قـــلّ نائـــل فصـــفاء ... فـــي وداد وخلّـــة لا تقـــلّ

أرخ ســترا علــى حقــارة بــرّي ... هتــك ســتر الصــديق لــيس يحــلّ

وقوله[2]: [الكامل]

قــالوا ترفــق فــي الأمــور فإنــه ... نجــح ومــري الــدّرّ بالإبســاس

ولقــد رفقــت فمــا حلبــت بطائــل ... مــا ينفــع الإبســاس بالأتيــاس؟!

وقوله:

وأخـــلاق كـــأطراف الزجـــاج ... رفقــت بهــنّ رفقــك بالزجــاج

إلــى أن عــدن لــي زبــدا بشــهد ... كــذاك تكــون عاقبــة العــلاج

وقوله من مرثية أبي سليمان الخطابي رحمه الله[3]: [الخفيف]

انظــروا كيــف تخمــد الأنــوار ... انظــروا كيــف تســقط الأقمــار

هكــذا هكــذا تــزول الرواســي ... هكــذا فــي الثــرى تغــيض البحــار

أوحــد الــدين والمــروءة والفضــل ... رمتـــــه بســـــهمها الأقـــــدار

مــات مــن لــم يكــن لــدنياه فتــك ... بحجـــــاه ولا عليـــــه اقتـــــدار

هـــي مفتـــرّة عليـــه خـــداعا ... وهـــــو دون افترارهـــــا فـــــرّار

وقد وصف أبو الفتح البستي فضله بأبيات له:

أبـا القاســم اســتعبدت ودّي بتالــد ... تــلاه بــلا مــنّ لبــرّك طــارف

وأضعفت شكري حين ضاعفت أنعما ... وقد يضعف النبت الندى المتضاعف

---

(١) انظر: يتيمة الدهر ٤/٣٩٥، ولباب الآداب ١/٢١٩.

(٢) انظر: يتيمة الدهر ٤/٣٩٥.

(٣) انظر: ديوان أبي منصور الثعالبي ١/٦٥.

أتاني كتاب منك فيه طرائف تقبّل من أطرافهن الطرائف
صحيفة إحسان تخرّ لحسنها سجودا إذا ما لا حظتها الصحائف
وفيه من النظم البديع وصائف تقصّر أوصافهنّ الوظائف
فواصلني منها شباب مساعد وطالعني منها زمان مساعف
وأصبح دهري عادلا وهو عاسف وعادت رخاء ريحه وهو عاصف

ومن أعيان نجوم الدولة:

أبو نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد الشيرازي الكاتب ابن الكاتب، والنقاب ابن النقاب، والبحر ابن السحاب، والبدر ابن الشهاب، والنار التي لا يخمدها الماء ذكاء، والسيف الذي لا يألف القراب مضاء، والسعد الذي يلي وتد السماء زكاء، فعطارد تلميذ إفادته، والمشتري مشتري سعادته، وثاقب النجم عبد دهائه، وشارق الشمس خادم رأيه وروائه.

خدم أبوه- أبو طاهر- حسام الدولة أبا العباس تاش على ديوان أسراره. بارعا في الصناعة، صنعا في البراعة، مخلوقا لفصل القول، مرموقا بعين الطول، يناضل الصاحب إسماعيل بن عباد، فيخرق عليه قرطاس الأدب، ويساجله فيملأ الدلو إلى عقد الكرب، مصعب لا المصعبي يضاهيه، ولا المؤملي يباهيه، ولا الفارسي يدانيه، ولا اليسعي يسع بعض مساعيه. يجانس أنجم النّثرة نثره، ويثاقب شعرى المجرة شعره، فمما بلغني عنه أنه قال:

بحسام دولته وصاحب جيشه وحجاب سدّته أبي العباس

وقد جمع في هذا البيت خصائص أوصافه، وضمّ إلى واسطة المدح أقاصي أطرافه، دالا على نبوة الإعجاز، ببرهان الاختصار والإيجاز.

وأراد الله سعادة هذا الفاضل، فهداه نهج أبيه، وعدّاه موقف التشبيه، فنما نموّ الأشاء، على طيب التربة والماء، ليس نموّ القامة والضخامة، لكن نموّ هلال الظلم، وشبوب النار فوق العلم، وصفاء الخمر مرشوما على القدم.

واختص بخدمة الأمير الجليل أبي سعيد التونتاش خوارزمشاه، إذ هو تاج الحجّاب، وناظر عين الباب، فأعداه يمنه حتى لبس الملك فضفاضا، وغنى عن السواد وإن كان عليه بياضا. وانتقل بانتقاله عن سمة الكتابة، إلى رتبة الوزارة، وعن حضيض

الخدمة، إلى يفاع الشركة في الإمارة، فلم يشركه من أبناء جنسه في البلاغة اثنان، وساد حتى أعيا من عبد المدان مدان. ومما وقع إليّ من نسج قلمه، وحرّ كلمه، من كتاب خاطب به بعض إخوانه:

«لعل الدهقان يظنني أؤثر مع مساعدة الزمان مباعدة الإخوان، وأرضى من صدر الوزارة بقلب كالحجارة، فلم يزل نيل المراتب حلّالا للعقود، قطّاعا للأواصر والعهود، كلّا إني ما أزداد ارتفاعا، إلا ازددت للصديق اتضاعا، ولا أنال على الأيام رتبة، إلا ازددت إلى الإخوان قربة. غيري من يصلّفه السلطان ويبدله الزمان، ويذمّ عهده الإخوان، على أنني مهما نسيت عهدا أو تناسيت، وقلعت أخيّة الوفاء دون من آخيت، فلست أنسى عهده، ولا أرضى قطيعته وهجره. إني وقد قيّدني بأياديه الزهر، واسترقني بمعاليه الغرّ، فما أرى له بديلا، ولا أملك عنه تحويلا، أعاذني الله- ما بقيت- من صدوده، ولا سلبني طيب الأنس به بمنّه وجوده».

وهذا القدر على مبلغ القدرة دالّ، وللمميز البارع متى قصد الإنصاف في المدح والتقريظ مجال.

فهؤلاء أعيان رعايا السلطان في الفضل الواسع، والأدب الجامع، ووراءهم من أعلام البراعة وأحداث الصناعة من يزحف ذكرهم عن الغرض المقصود بهذا الكتاب، ولم استقر أسامي المذكورين إلا أنهم بالإضافة إلى سائر أعيان البلاد، أفراد في ارتفاع المراتب، واتساع الحظوظ والرغائب، واضطراب الصيت في الآفاق، وصوغ الأيادي قلائد الأعناق.

وسنعود إلى ذكر السلطان يمين الدولة وأمين الملة، ووقائعه التي رضيتها حدود الظبات، وإن سخطتها نفوس العداة، فننمي كل وقعة إلى وقتها ويومها، ونلحق شرح حالها بقومها، إلى أن نوفي الكلام حقه من الإشباع في ذكر الحروب التي جرت بين السلطان وبين أيلك الخان.

ذكر واقعة بهاطية

لما فرغ السلطان يمين الدولة وأمين الملة من أمر سجستان، وسكن له نابضها، وانجاب عنه عارضها، ارتاح لغزوة بهاطية، فجرّ الجحافل مسوّمين بشعار الهداة الثقات، ورايات الحماة الكماة، حتى عبر سيحون من وراء الملتان إلى مدينة بهاطية، فألفاها ذات سور تزلّ عن موازاتها أجنحة النسور، وقد أحاط بها خندق كالبحر المحيط، في الغور البعيد والعرض البسيط، وهي مشحونة بملء الوهم من عدة وعديد، ومعمول عن حديد، وكل فيل كشيطان مريد. وعظيمهم يومئذ المعروف بجهرا، فاستخفّته العزة بما حوته يده للبروز من وراء السور مهوّلا بأعداد رجاله، وأشخاص أفياله، ومتطاولا بباع الاقتدار في قتاله.

وحضأ السلطان عليه نار الحرب ثلاثة أيام بلياليها، يرميه بالصواعق من ظبى السيوف البوارق، ويقذفه بالشهب اللوامع، ومن شبا الرماح الشوارع. وواصلها عليهم صبيحة الرابع، بضرب يطير الحواجب عن العيون، ويزيل القبائل عن الشؤون، ورشق يدع الأجساد مناخل بل مناخر قد انفجرت عروقها، وأعيت على السّكر بثوقها، حتى إذا توّجت الشمس قمة النهار، أهاب بالشدّ على الكفار الفجار فتجاوبت نغم التكبير استنزالا لنصر الله عز وجل، وتنجزا لصادق وعد الله. وحمل أولياء الله على ذوي الإفك والشرك حملة كشفت صفوفهم، وأرغمت بالذل أنوفهم. وأقبل السلطان كالفحل العتيق يضرب باليدين، ويقدّ الدّارع بنصفين، ويسقي ظماء الكفر من كؤوس الحين. وملك عليهم في تلك الشدة الواحدة عدة من الفيلة التي كان يعدّها الكافر حصونا لقلبه، ويعدها سكونا لقلبه.

وتماوج الفريقان في غمار تلك الحملة، بين نقف يثير أدمغة الهام، وطعن ينزف حشاشة الأجسام. وأعلى الله راية السلطان، بل راية الدين والإيمان، وأهبّ ريح النصر رخاء، وأعاد شدة العيش رخاء، فولّى المشركون نحو المدينة اعتصارا بسورها، وانحصارا في دورها، فأعجلهم الطلب عن الاحتياط، وملك عليهم مداخل الحصار، وتعاون أفناء العسكر على سدم خنادقه، وهدم وثائقه، وتضافروا على تفسيح مضائقه، وتفتيح مغالقه.

وقد كان بجهرا حين غلت مراجل الحرب، واختلت مناجل الطعن والضرب، أحسن بالهون والعطب، وشام برق الويل والحرب، فاندسّ في عصابة من رجّالة رجاله،

للاحتجاز ببعض الغياض، أو الاستناد إلى شعف بعض تلك الجبال، فسرّب السلطان كوكبة من خواصه في طلبهم، فأحاطوا بهم إحاطة الأزرار بالأعناق، وحكّموا فيهم حدود البواتر الرقاق. فلما رأى بجهرا ما دهاه، عمد إلى خنجر في خصره، فهتك به حجاب صدره، وانتقل إلى ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:٦-٧]، جزاء لمن كان كفر وتولّى، وجحد الأولى، ولا صام ولا صلّى، ولا سبّح ربه الأعلى.

نعم، وأقبل عسكر السلطان، فقتلوا المقاتلة، وغنموا الأموال الحاصلة، وخصّ السلطان مائة وعشرون رأسا من الفيلة، بما يضاهيها من ذخائر الأموال والأسلحة، ملكا عزّ على غيره مناله، وملكا تطفّل على حلته حلاله. وأقام ببهاطية إلى أن طهّرها من أنجاس أولئك الأرجاس، وأدناس أولئك الأنكاس، ونصب بها من يعلّم حملة الدين سنن الإسلام، ويبين لهم طرق الحلال والحرام. ثم كرّ إلى غزنة موفور العلاء، منصور اللواء، عالي الرأي، سائر الجد على خط الاستواء، إلا أنه وافق منصرفه هوامي أمطار، وطوامي أنهار، وفوارع جبال، وقوارع أضداد وأقتال، فاستغرق الغرق جلّ أثقاله، وشمل التفرّق جملة من رجاله، ووقاه الله آفة تلك المسافة، ومهالك تلك المسالك، وهو يتولى الصالحين.

وقد كان أبو الفتح علي بن محمد البستي ينكر حركات السلطان بنفسه في تلك المقاصد، برأي يستمليه من عطارد، وحقا لقد كان يقول ما تشهد به العقول، ولكن إذا جاء بهرام، والسيف الحسام، والبطش والإقدام، فقد سقط الكلام، وبطلت الصحائف والأقلام. وأنشد أبو الفتح البستي في هذا الباب لنفسه قوله[1]:

ألا أبلغ السلطان عني نصيحة ... يشيعها ودّ ورأي محنّك
تجاوزت أوج الشمس عزا ورفعة ... وذللت قسرا كل من قد تملكوا
فما حركات متعبات تديمها ... تأنّ فأوج الشمس لا يتحرك

وهذه مسألة تتنازعها الأوائل، فمنهم من يجعل لأوج الشمس حركة كسائر حركات الأوجات، فأما المحققون فقد أنكروا ببراهين هندسية، وأشكال برهانية.

(١) انظر: المتحل للثعالبي ١/٧٢.

ذكر غزوة الملتان

قد كان بلغ السلطان يمين الدولة وأمين الملة حال والي الملتان أبي الفتوح في خبث نحلته، ودخل دخلته، ورجس اعتقاده، وقبح إلحاده، ودعائه إلى مثل رأيه أهل بلاده. فأنف للدين من مقارّته على فظاعة شرّه، وشناعة أمره. واستخار الله الخائر في قصده، لا ستتابته، وتقديم حكم الله في الإيقاع به. وأمر بضم الأطراف، وكفت الذيول، وجمع الخيول إلى الخيول. وضوى إليه من مطوّعة المسلمين من ختم الله لهم بصالح العمل، وأكرمهم بإحدى الحسنيين في الأزل. وثار بهم نحو الملتان عند موج الربيع بسيول الأنواء، وسيح الأنهار بفضول الأنداء، وامتناع سيحون وأخواتها على ركّابها، واستصعاب متونها على أصحابها، فطلب السلطان إلى أندپال- عظيم الهند- أن يطرّق له في مملكته إلى مقصده، فتمنّع وتمرّد، وأخذته العزة باللؤم، فأبى وتشدّد.

ورأى السلطان غرة الرأي في دهمة ذلك الخطب أن يبدأ به على عزة جانبه، فيذلّ صليفه، ويبيح غريفه، ويمزّق لفّه ولفيفه، جامعا بين غزوتين، وقاطفا جني الجنتين؛ فبسط عليه أيدي القتل والإيثاق، والنهب والإرهاق، والهدم والإحراق، يلجئه من مضيق إلى مضيق، وينفيه من طريق إلى طريق، طاويا عليه بلاده طيّ التجار بحضرموت برودا، إلى أن ضجرت القنا من هتك حلق الدروع، وسكرت الظبى من رشف علق الأحشاء والضلوع، وركب أثره في أغوار دياره، وأعماق رباعه، يتجسس دماث السهول، وقضض الأماعز، ويقري عليه وحوش الجوّ بين ضيق المداخل ورحب المفاوز، حتى أضمرته قشمير. ولما سمع أبو الفتوح والي الملتان بما جرى من أمر عظيم الهند، وهو الوجيه الرفيع، والسد المنيع، والسيف الصنيع، قاس باعه بشبره، وذراعه بفتره، وأيقن أن رعن الجبال لا تطال بهضبات القور، وزرق البزاة لا تنال ببغاث الطيور، فعجّل نقل أمواله على ظهور فيلته إلى سرنديب، وأخلى الملتان للسلطان يفعل فيها ما يشاء، فثنى العنان إليها مستعينا بالله تعالى على من أحدث في دينه، أو حدّث بتوهينه، فإذا أهلها في ضلالتهم يخبطون، وفي طغيانهم يعمهون، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢]، فضرب عليهم بجران المحاصرة، وكلكل المناجزة والمناحرة، جزّا للغلاصم، وبتكا للأيدي من المعاصم، وإرصادا لهم بالفاقرات القواصم، حتى افتتحها عنوة، وشحنها عقابا وسطوة، وألزمهم عشرين ألف

ألف درهم يرحضون بها دنس استصعابهم، ويدرأون عن أنفسهم هجنة استشرائهم وإبائهم.

وعبر ذكره- بما آتاه الله من نصرة الدين، وإنارة معالم اليقين- عرض البحر إلى ديارات مصر، حتى درست بها مقاماته التي لم يرو مثلها عن ذي القرنين، إلى حيث انتهى من أمر السدّين، فارتعدت فرائص السند وأخواتها، حذار بطشه وانتقامه، وخفتت بها نجوى الإلحاد، وطمست صوى الغي والعناد، فلله أبو تمام حيث يقول[1]: [الخفيف]

كرمت غزوتاك بالأمس والخيـ ـل دقاق والخطب غير دقيق
حين لا جلدة السماء بخضرا ء ولا وجه شتوة بطليق
إن أيامك الحسان من الرو م لحمر الصبوح حمر الغبوق
معلمات كأنها بالدم المهـ ـراق أيام النحر والتشريق

(١) انظر: الديوان ١/٦٥١.

ذكر عبور عسكر أيلك الخان نحو خراسان

قد كانت الحال في الألفة قائمة بين السلطان وبين أيلك الخان، إلى أن دبّت عقارب الفساد في ذات البين، واضطرب الحبل الساكن، واشتعل الجمر الهامد، وراعى أيلك فرصة المجاهرة بسرّ المكاشرة، حتى إذا صمد السلطان صمد الملتان، وغارت نحو تلك البلاد راياته، وخفّت عن أعيان رجاله ولاياته، سرّب سباشي تكين- صاحب جيشه وأحد أقربائه- إلى كور خراسان في معظم أجناده، وشحن بلخ بجعفر تكين وعدة من أوليائه وقواده. وكان والي طوس أرسلان الجاذب مقيما بهراة مأمورا بالانحياز إلى غزنة متى نجم ناجم عناد، أو نعق ناعق بفساد، فأسرع الانقلاب إليها، آخذا بوثيقة الحزم في ترك القتال، وتربصا بالحمل غاية الفصال. وورد سباشي تكين هراة فاستوطنها، وندب الحسين بن نصر للديوان بنيسابور، فرتّب الأعمال، وواصل الاستخراج، ومايلهم كثير من أعيان خراسان، لاستخفاء خبر السلطان من جانب الملتان، وتناقل الألسنة أهواء القلوب ونوازع النفوس أخابير زور، وأراجيف غرور.

وأمر الوزير أبو العباس الفضل بن أحمد بالاحتياط على الطرق بين غزنة وحدود الباميان وبنچهير، وسدّها بحماة الرجال على حصانة مداخلها، وصعوبة مراكبها، وطيّر البريد إلى السلطان بما انبثّ في أطراف البلاد، من حيّات العداة، وعقارب الغواة، فأعجلته بديهة البلاغ عن استتمامه، وأزعجته غلبة الحميّة عن مقامه، فركب ركوب العاصف أكتاف الجهام البارق، يطوي الأرض طيّ المهارق، بين إيضاع وإيجاف، واهتداء واعتساف، وبين سهول وظراب، وسهوب و شعاب، حتى ألقى عصا القرار بغزنة، وأقام العطاء لأبناء دولته، وأنشاء جملته. وملأ أيديهم بالعطايا والرغائب، وأزاح عللهم في المطايا والركائب، واستنفر الأتراك الخلجية أحلاس الظهور، وأبناء الصوارم الذكور، فنفر منهم[1]:

جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرْ كَأَنَّمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالإِبَرْ

وجاش نحو بلخ، وبها جعفرتكين، فأسرع الكرّ إلى ترمذ إشفاقا من ضغمة الضيغم الخادر، واحتراسا من وثبة الأرقم الثائر. واستقر السلطان ببلخ، موفور الأنس والجذل،

(١) انظر: المثل السائر ٢/٣٩٠.

كما تجتلى صفحة الشمس من برج الحمل، وأمر بإتباع سباشي تكين بأرسلان الجاذب، في زهاء عشرة آلاف من أبناء الكفاح، ومتحة الأرواح بأشطان الرماح.

وسارع سباشي تكين نحو الوادي للعبور، فلم ترعه إلا العاديات ضوابح، والموريات قوادح، فكرّ على أدراجه حائرا عائرا، وعطف إلى مرو على أن ينسرح منها إلى الشطّ على سمت المفازة، فإذا الآبار مردومة، والمناهل مطمومة، ووديقة الصيف مسعورة، وأذيال السوافي على المعالم مجرورة، فانثنى إلى سرخس وبها الحسن بن طاق رئيس الأتراك الغزية، فأحدق به إحداقا سدّ عليه باب الهرب، وضيّق دونه وجه المجال والمضطرب، فمانعه ما قدر. ثم ظفر به سباشي تكين فقدّه بنصفين، بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة من الجانبين، وأعجله ارتداف أرسلان الجاذب إياه عن فضل المقام، وروح الاستجمام، فارتحل إلى أبيورد، ومنها إلى نسا، وبينهما مرحلة واحدة، كلما صدر هذا، ورد ذاك، ومتى ظعن ذاك، أناخ هذا، يتقاسمان أمداد الطلب والهرب جماما، ولا يردان المياه إلا لماما. وقد كان سباشي تكين قد حصّل صدرا من المال والأسلحة من نواحي هراة وغيرها، فصارت عقلة له دون الخفوف في وجه النجاة، فهو يتيامن مرة ويتياسر أخرى، منكوسا على رأسه خوف العار من إسلام ما بردت به يداه، وأعياه الخلاص بحشاشة النفس آخريا إلا بإفرازه، وتفريغ الخاطر عن الشغل به.

ولما قرب أرسلان الجاذب من نسا، رحل متوجها نحو سيمبار، وأزعجه الطلب نحو جرجان، فركب قلل تلك الجبال بين الآجام الملتفة، والغياض المحتفة، والمخارق الضيقة، والمخارم المضطربة. وتسلّط الكراكلة على أثقاله، وأفناء رجاله، حتى فشت نكايتهم فيه. واستأمن إلى شمس المعالي قابوس بن وشمكير طائفة من أهل جملته، لعدم المراكب، وذهاب الحرائب. وانفلّ هو على سمت دهستان حتى عاد إلى نسا، وجمع ما بقي عليه من تلك الأثقال، فأصدرها إلى خوارزمشاه أبي الحسن علي ابن مأمون يستودعه إياها أمانة لأيلك الخان، وحذره أن يمد إليها بغير الصيانة يده، وأصحبها رجّالة عسكره والعجزة منهم عن صحبته، واقتحم المفازة متوجها نحو مرو. وكان السلطان قد انحدر إلى طوس مراعيا ما يسفر عنه ركض أرسلان الجاذب على أثره، وإلصاقه الطلب الحثيث به، فلما بلغه ركوب سباشي تكين عرض المسافة، أسرى على طريق مرو معارضا له في مسيره، وناقضا عليه قوى تدبيره، فوصل إليه مخلصه عن

وعثاء تلك البيداء، ورماه بأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي زعيم العرب، وبسائر قواده، رجال يرون الملاحم ولائم، والوقائع نقائع، وسيوف الضراب عرائس، وصفوف الكماة فرائس، فكان كما قال سعيد بن حسان[1]: [السريع]

فررت من معن وإفلاسه ... إلى اليزيدي أبي واقد
فكنت كالساعي إلى مثعب ... موائلا من سبل الراعد

وأحاطت به السيوف حيث لا ماء إلا منابع الأفواه وهي عاصبة، ولا مرعى إلا شكائم اللجم وهي عاضبة. وأسر أخو سباشي تكين في زهاء سبعمائة من وجوه الأفراد، ورتوت القواد. وأمر السلطان بقراچوليّاتهم فأفرغت قيودا لكعابهم، وجوامع لرقابهم، وحملهم إلى غزنة ليري أهلها حسن صنع الله فيمن شاقه، ونقض عهده وميثاقه.

ونجا سباشي تكين في خفّ من العدد بجريعة الذقن، فعبر جيحون إلى أيلك الخان.

وقد كان أيلك عبّر جعفرتكين في زهاء ستة آلاف رجل إلى بلخ ثانيا لا ستفساد عزيمة السلطان في قصد سباشي تكين وإخراجه، فتهاون بهم حتى فرغ الخاطر من أمره، ووضع ما أنقضه من الشغل به عن ظهره، ثم ثنى العنان إليهم شدا أغصّ الهواء بغباره، واستغرق أوقات ليله ونهاره، فلم يرعهم إلا راياته بأجنحة النجاح طائرة، وخيوله في صهيل المراح سائرة. وكمن لهم السلطان، فلما رأوا الكمين، انفلّوا منهزمين، يختمون دعوة الخلاص بآمين آمين. وتبعهم صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين على ساحل جيحون، كاسعا لأدبارهم، ومثخنا في غمارهم، إلى أن عبروه، فسلمت خراسان من عيث سوادهم، وخلت عن مبثوث جرادهم.

واضطرب أيلك حنقا لما جرى على عسكره من الضغطة الكبيرة، والصدمة المبيرة، فاستعان بقدر خان بن بغراخان لقرابة بينهما وكيدة، ولحمة وشيجة، واستجره بحفي مسألته إلى أخذ ثأره، مستظهرا بنصرته وإظهاره، فاستجاش أحياء الترك من مضانها، وحشر بني خاقان من أقصى بلادها، واستنفر دهاقين ما وراء النهر في جيوش تجلّ عن الحدّ والحصر، وسار في خمسين ألفا أو يزيدون، حتى عبر جيحون مدلا بعسكره

(١) انظر: الخزانة ١/٣١٥، وشرح الشافية ٤/١١١.

المائج، وبطشه الهائج، ومعتضدا بقدر خان ملك الختن ذي العدّة والعديد، والبأس الشديد، والأيد المتين، والبسطة والتمكين، في رجال كالبخاتي الفوالج، فوق البحور الموائج، عراض الوجوه، خزر العيون، فطس الأنوف، خفاف الشعور، حداد السيوف، سود الثياب من حلق الدروع، يحملون جعابا كخراطيم الفيول، محشوة بنبال كأنياب الغول. ولما سمع السلطان بعبوره في جمهوره، وهو إذ ذاك بطخيرستان، سبقه إلى بلخ، فاستوطنها قاطعا عنها طمعه، ومالكا عليه ممتاره ومنتجعه.

واستعد للحرب، فخرج السلطان في عساكر الترك والهند والخلج والأفغانية والغزنوية، أنشاء الجدّ والصدق، وأبناء المشق والرشق، إلى معسكر له على أربعة فراسخ من البلد يعرف بقنطرة چرخيان، وسيع المجال على الرجال، رحب الفضاء على الدهماء. وزحف أيلك إلى محاذاته في عدده الدّهم، وعسكره المجر، فتطارد الفرسان، وتجالد الشجعان سحابة يومهم على رسم الطلائع، أمام الوقائع، إلى أن كفّهم حاجز الليل، وأصبح الناس على ميعاد الحرب، فعبأ السلطان رجاله صفوفا كالجبال الراسيات، والبحار الزاخرات، ورتّب في القلب أخاه صاحب الجيش نصرا، ووالي الجوزجان أبا نصر أحمد بن محمد الفريغوني، وأبا عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي، في كماة الأكراد والعرب، وسائر جماهير الهنود، ومساعير الجنود. ورتّب في الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد التونتاش فيمن برسمه من أعيان الرجال، وفرسان الزحف والصيال. وندب للميسرة أرسلان الجاذب فيمن تحت قيادته من نجوم الأبطال، ورجوم القتال. وحصّن الصفوف بزهاء خمسمائة من فيلته التي تميد الجبال من أثقالها، وترتجّ لها الأرض بزلزالها.

وأقبل أيلك فشحن قلبه بخواص غلمانه، وأعلام فرسانه. وولّى قدر خان ميمنته في أتراك الختن، بين آجام العوامل والجنن، وشحن بجعفرتكين أخيه ميسرته بكل أليس كالشجاع المحرج، والحسام المرهف، بين وقايات الزّغف والجحف. وتحامل بعضهم على بعض، فخيلت المعركة سماء غمامها مثار القسطل، وبروقها بريق البيض والأسل، ورعودها صليل السلاح، ورشاشها صبيب الجراح.

واستنزل أيلك عن صهوات الخيول إلى صعيد الأرض زهاء ألف غلام يفلقون الشعور أنصافا، وينصبون وسائط الأهداب أهدافا، فشكّوا بالنبال تجافيف الفيول، وشقوا بالنصال سرابيل الخيول.

ولمّا جدّ الأمر، واحتدّ الجمر، وأعضل الداء، واستفحل الأعداء، وزخر وادي الخطب بمدّه، وكاد يخرج بادي الشرّ عن حدّه، نزل السلطان إلى صعيد ربوة كان تشرّفها لتدبر عطفات الحرب، وتلافي نزقات ذلك المركب الصعب، فوضع لله خدّه، وعفّر شعره، وأرسل دمعه، وقدّم نذره، ودعا الله أن يحرس ملكه، ويحسن فلجه ونصره، ثم وثب إلى قعدته من فيلته المغتلمة، فحمل بها وبسائر خاصته على قلب أيلك، فأهوى الفيل إلى صاحب رايته، فاختطفه بها من سرجه، ورمى به في الهواء من فوقه، وتخلل الآخرين حطما بخرطومه، وشكا بأنيابه، ودوسا بأظلافه. وانثال أولياء السلطان على الآخرين بسيوف تلغ في الدماء، وترشف أحساء الأحشاء، فطارت قلوبهم هواء، واستحالت قواهم هباء، وولّوا على أعقابهم نافرين، وتبعهم الطلب بظبات القسر والقهر، إلى أن لفظتهم خراسان إلى ما وراء النهر. ولقد أحسن أبو الحسن السلامي في قوله، فكأنما وصف حاله، ومدح آثاره وأفعاله[1]: [الكامل]

يا سيف دين الله ما أرضى العدى ... لو أن سيفك مثل عدلك يعدل
ما أن سننت لهم سنانا في الوغى ... إلا أطلّ عليه منهم أيطل
فالروض من زهر النجوم مضرّج ... والماء من ماء الترائب أشكل
والنقع ثوب بالنسور مطرّز ... والأرض فرش بالجياد مخمّل
يهفو العقاب على العقاب ويلتقي ... بين الفوارس أجدل ومجّدل
وسطور خيلك إنما ألفاتها ... سمر تنقّط بالدماء وتشكل

وامتدح عند ذلك السلطان يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم الحسن بن عبد الله المستوفي بقصيدة أولها:

ظهر الحق ثابت الأركان ... صاعد النجم عالي البنيان
وهوى للردى ذوو النكث والبغي ... وأهل الضلال والطغيان

(١) انظر: يتيمة الدهر ١/٣٠٨.

ما الذي غركم بمحمود المحمود أنحاؤه بكل لسان
بأبي القاسم المعظم ظل الله في الأرض صفوة المنّان
من مناويه نهزة للمنايا غرض للحتوف والأحزان
بأنه ملك الأملاك طرا وتاج هذا الزمان
ملك صار من مضى من ملوك الأرض لفظا وجاء عين المعاني
فخر المشرقان بالحظ منه فاستطالا فاشتاقه المغربان
جمع الله فيه وهو قدير عالما للكمال في جثمان
ملك وهي في الحقيقة عندي ملك صيغ صيغة الإنسان
ملك عادل فأدنى ضعيف وأخوه في حكمه سيّان
أخذ الهند باليماني ويحوي يمنا إن أراد بالهندواني
سيفه والمنون طرفا رهان نحو حلق العدو يبتدران
خذ يميني بأن سيخضع حقا لليميني كل سيف يماني
لو عصا خروع تسمى اليمينية ظلت تحيك في سندان
إنما سيفه الحسام عصا موسى بن عمران صاحب الثعبان
و قرا جوليّاتكم كيد سحر فإذا جاءت العصا فهو فان
غاب عن غابة الهزبر لغزو الـ ـهند مستنزلا رضا الرحمن
فسبى واستباح واجتاح منهم وأحلّ النكال بالأوثان
و انثنى قافلا وقد ملأ الأيدي فيئا وفاز بالرضوان
فسطا بأسه بطاغية الترك وأهل الشقاق والعصيان
طلعت راية له فتولّوا كعباديد ثلة من ضأن
كم قتيل وكم جريح وغرقى وأسير في القدّ ذي رسفان
خطبوا الملك فاعترتهم خطوب جرّعتهم مرارة الخطبان
طار أيدي سبأ عساكر ظنوا أنهم ملكوا على البلدان
فبخوارزم في السجون ألوف وألوف تهيم في جرجان
و بمرو وفي القفار إلى جيحون قتلى مآكل الحيتان

جـزر للسـباع فـي كـل فـجّ　　طعـم للنسـور والعقبـان
بـارك الله ربنـا فـي خمـيس　　ردّ عنّـا خمسـين ألـف عنـان

وكتب أبو الفضل الهمذاني البديع إلى الشيخ الوزير أبي العباس:

«هذا ورب الكعبة آخر ما في الجعبة، لقد أنصف من رامى القارة، ومحا السيف ما قال ابن دارة، ثم لا نزوة بعدها للترك، ولا تحلم بعدها بالملك. لقد كاس السلطان إذ عفّر لله شعره، وعرض على الله فقره، وفوّض إلى الله أمره، وأخلص لله نذره، وناهض بالله خصمه، وسأل الله حوله، ولم يعجبه كثرة الملأ حوله، شدّ الله بذلك أزره، وقوّى أمره، وأعزّ نصره، وأقطعه عصره، وأطعمه ملكه، وأورثه أرضه، إن الظفر بأسبابه، والموفق يأتي الأمر من بابه.

و له فصل، منه:

إنه الجلاد، ثم البلاد، ﴿مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ [النمل:١٨]، كتب الله ليغلبنّ السلطان. وراءك، إن السيف أمامك وخلفك، إن الموت قدّامك:

وأرضـك أرضـك إن تأتنـا　　تـنم نومـة لـيس فيهـا حلـم

إن المغازي قد عادت مخازي. ألا ربّ راكض نادم، وربّ صوت ظالم، وربّ عثور يؤدي إلى ثبور، وربّ طمع يهدي إلى طبع، ألا إن هذا الفتح فتح حفظ على الشريعة ماءها، وعلى السنّة ذماءها، وعلى النفوس دماءها، وعلى الأموال نماءها، وعلى الحرم غطاءها. أعاد الله به البلاد خلقا جديدا، وأنشأ للناس نشأ حديثًا، وعقد الملك عقدًا طريفًا، فما أولى يومه أن يتخذ عيدا، ويجعل في المتصرفات تاريخا جديدا، وليس العقد مع الله بأنشوطة، فأوفوا الله عهده، كما صدقكم وعده، وإنما عهده عند السلطان أن يحسن النظر، وعهده عند الشيخ الجليل أن يحسن المحضر. وهراة من البلاد شيعة هذه الدولة وعيبتها، فإن حطّ عن حملها العلاوة، وأزيل عن عبرتها الإتاوة، فلله هذا النظر ما أحلى ثماره، وأكرم آثاره».

فلما وضعت هذه الحرب أوزارها، وأفاضت غرة النصر أنوارها، سنح للسلطان أن يكبح أعنّته إلى جانب الهند للإيقاع بالمعروف بنواسه شاه أحد أولاد ملوك الهند. كان نصبه ببعض ما افتتحه من ممالكهم لخلافته على سدّ ثغورها، وتحصين أطرافها وحدودها، إذ كان قد استحوذ عليه السلطان فارتدّ في حافرة الشرك، وانسلخ عن جلدة

الإسلام، وراطن زعماء الكفار على خلع ربقة الدين، والانفصام عن عروة الحبل المتين، فصرف عنانه فوره إليه، وصبّ سيوفا تقطر من دماء مخالفيه عليه، ركضا بادر أفواج الرياح، واختصر أوقات الإظلام والإصباح، حتى نفاه عن مثواه، وملك عليه جملة ما حواه، وأعاد إلى تلك البقاع بهجة ملكه وسلطانه، وحصد نجوم الشرك عنها بحدي سيفه وسنانه، فذاك برهانان من الله في إعلاء دولته، وإشاعة دعوته، وإعزاز نصرته، وإفلاج حجته، ويسّر الله له الانقلاب إلى غزنة مظاهرا له بين نصرين يتجاذبان فخامة وجلالة، ويتباريان نباهة وجزالة، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

obeikandl.com

ذكر غزوة قلعة بهيم نغر

قد كان السلطان يمين الدولة وأمين الملة بعد أن فتح الفتحين، واقتدح النجحين، عرّج على غزنة للاستراحة، والتفرّغ لشكر الله على النعم المتاحة، وأقام بها شاحذا عزيمته لغزوة أخرى ترتفع بها حدود الإسلام، وتتعفر لها خدود الأصنام، وتنتكس عندها رايات الشيطان، في رحل للغواية شدّه، وحبل للضلالة مدّه، إذ كان بعد همّته يسومه خلاف الطبائع البشرية في استخشان المضجع الوثير، واستحباب الشوك على الوتير، واختيار قرع الأسنّة والعوالي على نقر المثالث والمثاني، وترجيح حدود البيض القواضب على خدود البيض الكواعب. كل ذلك لمجد يبتنيه، وصيت يقتنيه، وعزّ يحويه، وسعي يتقرب إلى الله به وفيه، حتى إذا انسلخ شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، استخار الله في إتمام ما رامه، وإسراج ما تولى إلجامه، وسار متوكلا على الله الذي طالما أطعمه نصره، وعرّفه صنعه، حتى إذا انتهى السير به إلى شط ويهند، لاقاه ابرهمن بال بن أندپال في جيوش تجيش بسود الرجال، في بيض الصفاح وزرق الرماح، وزهر الدروع، ودكن الفيول. وافترّت الحرب عن أنيابها العصل، وتوالت الحملات كما تتهاوى لوامع الشهب، وتترامى نوازع السحب.

ودارت رحى الطعان والضراب، طاحنة كل ندب شجاع، وقرم مطاع. وامتدت الوقعة من طفولة النهار إلى كهولة الطفل، حتى اكتست الأرض لون الشقائق من دماء الطلى والعواتق. وكادت تدور للكفار دائرة لو لا أن الله أعان السلطان على حملة في خواص غلمانه، كسعت أدبارهم، ومحت عن مقاماتهم آثارهم، وأغنمه ثلاثين فيلا كأشخاص القصور، بل كأمواج البحور. وأقبل أولياؤه يحسونهم أنّى يثقفونهم من بطون الأودية والشعاب، وظهور الفيافي والهضاب، واقتفى السلطان بنفسه أثره بين تلك المهارب متنجزا وعد الله في نصرة دينه، وتلّ كل ذي نفاق وشقاق لجبينه، فأفضى به الطلب إلى بهيم نغر أحصن قلعة بنيت على حرف طود رفيع، خلال ماء منيع.

وقد كان ملوك الهند وأعيان أهلها وجماعات النسّاك من ذوي الأملاك بها يدّخرونها مخزنة للصنم الأعظم، فينقلون إليها قرنا بعد قرن من أنواع الذخائر وأعلاق الجواهر، ما تخف أوزانه وتثقل عند السّوم قيمه وأثمانه، عبادة- بزعمهم- لما يفيدهم الحسنى، ويقرّبهم إلى الله زلفى. فصادف السلطان منها تمرة الغراب، وزبدة الأحقاب،

ما لا تقله ظهور الأجمال، ولا تسعه أوعية الأحمال، ولا تنسخه أيدي الكتّاب، ولا يدركه فكر الحسّاب. فحشر عليها جنوده، وضرب حواليها بنوده، وانبرى لقتال مستحفظيها بقلب جرئ، وأنف حمي، وعزم ذكي، وبطش قوي، ورأي بالصواب وري.

ولما رأى القوم غصص تلك الجبال بمغاوير الجنود، وتطاير النبال صعدا كشرر الوقود، استفزهم الرعب والوجل، وألوى بأحلامهم الخوف والوهل، فتخيلت أبصارهم تلك الرتوق فتوقا، وهاتيك السدود فروجا، والسكور بثوقا. وسحرتهم دولة السلطان، فهرّتهم كلاب الإدبار والخذلان، وأعيتهم وجوه الأمن والأمان إلا من جانب الاستئمان، فتنادوا جميعا بشعار السلطان، وفتحوا باب القلعة، وجعلوا يتساقطون على الأرض للأمان كالعصافير أخرجتها البواشق، والغيوث جاد بها الغيوم البوارق. وفتح الله تلك القلعة على السلطان فتحا يسيرا، وأتاه من لدنه صنعا كبيرا، وأغنمه ملء منفرج النفوس من بنات المعادن والبحور، وزاينات القمم والنحور.

ودخلها مع والي الجوزجان أبي نصر أحمد بن محمد الفريغوني وسائر خاصته، ووكّل حاجبيه الكبيرين: التونتاش وآسغ تكين بخزائن العين والورق، وسائر ذوات الأخطار والقيم، وتوكّل بنفسه بخزانة الجوهر، فنقل منها ما أقلته ظهور جماله، واستحمل سائرها أعيان رجاله. وكان مبلغ المنقول من الورق سبعين ألف ألف درهم شاهيّة، ومن الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف وأربعمائة منّ وزنا، ومن أصناف الثياب التسترية، والدبابيج السوسية ما أنطق مشايخ الزمان، والطاعنين في الأسنان أنه لا عهد لهم بأمثالها صنعة، وتفويفا، وتوريقا وتلطيفا. وفي جملة الموجود بيت من الفضة البيضاء كفاء بيوت الأغنياء طوله ثلاثون ذراعا في عرض خمسة عشر ذراعا صفائح مضروبة مهيأة للطيّ والنشر، والنصب والحط. وشراع من ديباج الروم أربعون ذراعا في عرض عشرين ذراعا، بقائمتين من ذهب، وأخريين من سبيكة فضة.

ووكل السلطان بتلك القلعة من ثقاته من يراعيها، ويؤدي أمانة الاستحفاظ فيها.

وكرّ عائدا إلى غزنة في ضمان النصر والإظهار، وقران اليسر واليسار. ولما مسّت عصاه جانب القرار بها، أمر بساحة داره ففرشت بتلك الجواهر، فمن درر كالنجوم الثواقب، قد سلمت عن أيدي الثواقب، ومن يواقيت كالجمر قبل الخمود، أو الخمر بعد الجمود، ومن زبرجد كأطراف الآس نضارة، أو ورق الأقحوان غضارة، ومن قطاع

الماس كمثاقيل الرمان في المقادير والأوزان. واجتمعت وفود الأطراف على إدراك ما لم يرو في كتب الأولين اجتماع مثله لأحد من صناديد القروم، وملوك العجم والروم. وحضر ذلك المشهد رسل طغان خان ملك الترك أخي أيلك، فرأوا ما لم تره العيون، ولم تبلغه الظنون، ولم يملكه قارون، صنع الله الذي ﴿أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

obeikandl.com

ذكر آل فريغون

قد كانت ولاية الجوزجان لآل فريغون أيام آل سامان يتوارثها كابر عن كابر، ويوصي بها أول إلى آخر. أشراف النفوس والهمم، كرام الأخلاق والشيم، وطاء الأكتاف لنزاع الأطراف، خصاب الرحال لوفود الأمال، دأبهم إجلال قدر الآداب، ورفع درجات الكتّاب، وافتراض حقوق الأحرار، وإغلاء أسعار الأشعار، فكم من غريب آواه إحسانهم، ومن أديب أغناه سلطانهم، ومن كسير جبره إنصافهم، ومن حسير أنهضه عطفهم وإلطافهم. وكان أبو الحارث محمد غرّة تلك الدولة، وإنسان تلك المقلة، وجمال تلك الحلّة، وطراز تلك الحلّة، بما يؤتي من كرم خصيب، وكنف رحيب، وشرف رغيب، ومرتقى همّة بعيدة، ومستقى نائل قريب.

وكان الأمير ناصر الدين سبكتكين خطب إليه كريمته على السلطان يمين الدولة وأمين الملة، ثم أوجب لولده أبي نصر أحمد بن محمد كريمة له، فاتّشجت اللحمة، واشتبكت العصمة، والتحمت الوثائق، واستحكمت الأواصر والعلائق. ولما مضى أبو الحارث لسبيله، ورثه أبو نصر ابنه، فأوجب السلطان إقراره على ولايته، إيثارا له بفضل رعايته وعنايته إلى أن قضى نحبه في شهور سنة إحدى وأربعمائة.

و أقرأني أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني المعروف بالبديع كتابا له إليه، جعله مقدمة الوفود عليه، فنال به من رغائب الأيادي ما ملأ يديه. وهو:

«كتابي والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره، والليث وإن لم ألقه فقد تصورت خلقه، والملك العادل وإن لم أكن لقيته فقد لقيني صيته. ومن رأى من السيف أثره فقد رأى أكثره. وما زلت- أيّد الله الأمير- أسمع بهذا البيت القديم بناؤه، الفسيح فناؤه، الرحيب إناؤه، الكريم أبناؤه. وأنشد من هذه الحضرة ضالتي، والعوائق يمنة ويسرة، تريني حسرة، والزمن العثور يقعد بي ويثور. فكم من عام عزمت وأبت المقادير، ونويت وعرضت معاذير، والآن لما وفقت لهذه الزورة، اختلفت عليّ أخبار الملك العادل في مستقره، واختلفت باختلافها مرة في قوس الطريق، ومرة في وتره على اقتفاء أثره، حتى بلغت مبلغي هذا. ثم وسوس إليّ الشيطان تقدير مقدّر أني أقصد هذه الحضرة طامعا في مال، أو طامحا إلى نوال. وعظم سلطان هذه الوسوسة حتى كاد يثنيني عن درك الحظ من طلعته، ولم أبعد ما ألقاه في خلدي أن يكون، ولأناشدنّ الله الظنون أن

تنصرف في قصدي إلا إلى معرفة أوقعها، أو خدمة أودعها، أو مدحة أسمعها، أو رجعة أسرعها، ثم أدّخر هذه الدولة لمملكة أغصبها، أو راية أنصبها، أو كتيبة أغلبها، أو دولة أقلبها. فأما الدرهم والدينار فدفعهما إليّ ونزعهما من يدي سواء لدي، لا أشكر واهبهما، ولا أشكو سالبهما، إن لي في القناعة وقتا، وفي الصناعة بختا، لا يبعد منال المال إذا أردته، ولا يحوجني إلى ركوب العقاب وسلوك الشعاب مهما قصدته، بل يجيئني فيضا. ويتطفل علي أيضا، وهذه الحضرة وإن احتاج إليها المأمون، ولم يستغن عنها قارون، فإن الأحب إلي أن أقصدها قصد موال، لا قصد سؤال، والرجوع عنها بحال أحب إلي من الرجوع عنها بمال. قدمت التعريف، وأنا أنتظر الجواب الشريف، فإن نشط الأمير لضيف ظله خفيف، وضالته رغيف، فليزجر له بالاستقبال طائر الإقبال، والسلام».

وله فيه لما صدر عن فنائه مثقلا بنعمائه[1]: [المتقارب]

ألم تراني في سفرتي ... لقيت الغنى والمنى والأميرا
ولما تراءى شممت التراب ... وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما ... ن يعلو سحابا ويرسو ثبيرا
لآل فريغون في المكرمات ... يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغناهم ... رأيت نعيما وملكا كبيرا
فلا يعدم الملك ذا روعة ... يمنيّ المنى ويسرّ السريرا

ولأبي الفتح البستي فيهم:

بنو فريغون قوم في وجوههم ... سيما الهدى وسناء السؤدد العالي
كأنما خلقوا من سؤدد وعلا ... وسائر الناس من طين وصلصال
من تلق منهم تقل هذا أجلّهم ... قدرا وأسخاهم بالنفس والمال
يا سائلي ما الذي حصلت عندهم ... دع السؤال وقم فانظر إلى حالي
أما ترى أن حالي كيف قد حليت ... بهم ألم تر حالي عند ترحالي
فإن أكن ساكتا عن شكر أنعمهم ... فإن ذاك لعجزي لا لإغفالي

(١) انظر: ديوان بديع الزمان الهمذاني ٨٢/١.

ذكر أمير المؤمنين القادر باللّه
وانتصابه منصب آبائه الراشدين بمدينة السلام، واستقرار الإمامة عليه، وانعقاد البيعة له بعد الطائع للّه، وما اشتبك من الحال بين السلطان يمين الدولة وأمين الملة وبين بهاء الدولة وضياء الملة أبي نصر بن عضد الدولة في زمانه

قد كان بهاء الدولة وضياء الملة ينقم من الطائع لله أمورا لصدره فيها من غير وفاقه، وعدوله بها عن حكم استحقاقه، فدعاه ما توالى عليه من خلاف رضاه إلى مراعاة مصلحة الدين والملك، باختيار من يرعى حق الإمامة، ويتولى حياطة الخاصة والعامة، ويعزل هوى النفس في اتباع الحق واستشعاره، ونصرة الدين وإظهاره، وحماية الملك من أقطاره، وجعل يتلطف في التدبير عليه إلى أن تمكن منه، فخلعه واحتوى عليه وعلى ما كان جمعه، وذلك في شعبان سنة إحدى وثمانين وثلثمائة. وأرسل إلى البطائح وبها القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله فاستقدمه دار السلام لعقد البيعة له سدا للثلمة، ونظرا للأمة، وارتهانا للألفة، واجتلابا لمصلحة الجملة؛ فقدمها في شهر رمضان من هذه السنة. وتسارع الناس إلى مبايعته، وأصفقوا على طاعته، وتراضوا عن طيب النفوس بإمامته، وتناهبوا شكر الله على ما أتاحه لهم من بركات خلافته، ثقة بما اشتهر في الآفاق من مناقبه الغرّ وضرائبه الزهر، وفضائله المسطورة على صفحات الدهر، فقام بما قلّده الله من طوق الإمامة، مفوضا إليه أمره، ومتوكلا عليه وحده، فلم ير في مقرّه من سرير الخلافة أوفر منه حصاة، وأوقر أناة، وأصلب قناة، وأصدق تقاة، وأرضى سيرة، وأذكى بصرا وبصيرة، وأزكى علنا وسريرة، وأتم جزالة وجلالة، وأعم سياسة وحراسة. نعم، ولا أقوى منه جنابا، وأندى بنانا، وأجرى لسانا، وأعدل عقابا وإحسانا.

وعطفته عاطفة القربى على الطائع لله، فاستخصّه لمنادمته، واجتباه لمصاحبته، وألحفه جناح رعايته وحمايته، تفاديا من غضاضة تلحقه في زمانه، أو نكبة ترهقه في ظل سلطانه، وجانب أمانه، إلى أن فرّق بينهما الدهر المولع بالتفريق، وأخذ الرفيق عن الرفيق.

ورثاه أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى العلوي الرضي الموسوي[١] بقصيدة أولها[٢]:

إن كان ذاك الطود خرّ فبعدما استعلى طويلا
موف على القلل الذوا هب في العلا عرضا وطولا
قرم يسدّد لحظه فيرى القروم له مثولا
و يرى عزيزا حيث حلّ ولا يرى إلا ذليلا
كالليث إلا أنه اتخذ العلا والعز غيلا
و علا على الأقران لا مثلا يعدّ ولا عديلا
من معشر ركبوا العلا وأبوا عن الكرم النزولا
غرّ إذا نسبوا لنا الـ ـغرر اللوامع والحجولا
كرموا فروعا بعدما طابوا وقد عجموا أصولا
نسب غدا روّاده يستنجبون له الفحولا
يا ناصر الدين الذي رجع الزمان به كليلا
يا صارم المجد الذي ملئت مضاربه فلولا
يا كوكب الإحسان أع ـجلك الدجى عنا أفولا
يا غارب النعم العظا م غدوت معمورا جزيلا
لهفي على ماض مضى أن لا نرى منه بديلا

---

(١) الشريف الرضي: (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ / ٩٦٩ - ١٠١٥ م).

وهو محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي العلوي الحسيني الموسوي. أشعر الطالبيين على كثرة المجيدين فيهم.

مولده ووفاته في بغداد، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده وخلع عليه بالسواد وجدد له التقليد سنة ٤٠٣ هـ.

له ديوان شعر في مجلدين، وكتب منها: الحَسَن من شعر الحسين، وهو مختارات من شعر ابن الحجاج في ثمانية أجزاء، والمجازات النبوية، ومجاز القرآن، ومختار شعر الصابئ، ومجموعة ما دار بينه وبين أبي إسحاق الصابئ من الرسائل.

توفي ببغداد ودفن بداره أولاً ثمّ نقل رفاته ليدفن في جوار الحسين رضي الله عنه، بكربلاء.

(٢) انظر: يتيمة الدهر ١/٣٥٧.

وزوال ملـــك لـــم يكـــن يومـــا يقـــدّر أن يـــزولا
ومنـــازل ســـطر الزمـــا ن علـــى معالمهـــا الحـــؤولا
مـــن بعـــد مـــا كانـــت علـــى ال أيـــام مربـــأة نكـــولا
والأســـد ترتكـــز القنـــا فيهـــا وتـــرتبط الخيـــولا
مـــن يســـبغ المـــنن الجســـا م ويصـــطفي الحمـــد الجـــزيلا
مـــن ينـــتج الآمـــال يـــو م تعـــود باليّـــان حـــولا
مـــن يـــورد الســـمر الطـــوا ل ويكشـــف الخطـــب الجلـــيلا
و تـــراه يمنـــع دوننـــا وادي النوائـــب أن يســـيلا
عقّـــاد ألويـــة الملـــو ك علـــى العـــلا جـــيلا فجـــيلا

وانثال خطباء العراق وشعراؤها على مجلس الخلافة كأعراف الجياد في امتداح القادر بالله أمير المؤمنين وذكره مآثر آبائه، ومفاخر أسلافه مرابيع الكرم، ينابيع الحكم، مصابيح الظلم، مجاديح الأمم، ليوث البهم، غيوث القحم. وبلغني أن مقاماتهم مدونة بالعراق من بين منظوم ومنثور، وفقر وشذور، فلا حاجة بنا إلى تتبع ذكرها مع اشتهارها في ديارها.

وحكى لي أبو محمد عبد السلام بن محمد بن الهيصم أحد أعيان الكرّامية بنيسابور، قال: قمت في مجلس القادر بالله أمير المؤمنين خطيبا بحضرة بني هاشم ومشايخ بغداد وأعيان الحجيج، فقلت: الحمد لله ذي العزة القاهرة، والحجة الباهرة، والنعم المتظاهرة، الذي عم إحسانه، ودام سلطانه، ولطف شأنه، فلا رادّ لقضائه، ولا مانع لعطائه، ولا معقّب لحكمه، ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم من خير أرومة العرب مولدا، وأفضل جراثيمها محتدا، وأطولها نجادا، وأرسخها في المكرمات أوتادا، فأيّده أحسن تأييد، وأكد أمره أفضل تأكيد، حتى استقل الدين ناهضا، واضمحل الشرك داحضا، وظهر أمر الله والمشركون كارهون، فعليه صلوات الله عدد الرمل والحصى، ما طلعت عليه شمس الضحى، وعلى آله الطيبين. ثم قيّض الله من بعده الخلفاء الراشدين، لتمهيد الدين، وتوكيد اليقين، وتوهين كيد الملحدين، فبسطوا للإسلام بساطه، ونهجوا لأهل الآفاق صراطه، إلى أن تأدى الأمر إلى ذويه من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبني صنو أبيه، فأقاموا الإسلام عن أوده، وأسندوا الأمر إلى مسنده، معتصمين

بنصر الله، صادعين بأمر الله، معظمين لحرمات الله، وهلم جرا إلى أن تأكدت بيعة الخلافة بأمير المؤمنين القادر بالله، فبهر نوره العالمين، وشفى ذكره على المنابر صدور قوم مؤمنين، من بعد التواء من أظهر العناد، وانزواء من قصد الفساد. وأبى الله إلا نصرة الحق وإدالته، وقمع الباطل وإذالته.

ولقد حدثني محمد بن الفضل الحلواني، قال: حدثني الصولي عن المبرّد أن العباس بن حمدون حدّثه أن سعيد الخطيب قال: لما بايع الفضل بن مروان المعتصم بالله أمير المؤمنين، قام في الناس فقال:

بايعت منبسطا ولو لم تنبسط كفي لبيعته قطعت بنانها
من ذا إليه لا يمدّ يمينه قطع الإله يمينه فأبانها

ولوالدي في خدمة أمير المؤمنين ما يقارب هذا أو يشاكله، وذلك أنه أظهر بيعته لوارد كتابه على حين التواء من التوى بناحية بلخ، وقال فيها:

سبقت يميني نحو بيعة قادر بالله لما حالفته يد القدر
ما ضرّ بيعته التواء من التوى والله مبرمها بمكنون الزبر
ولقد أراه أحق من وطىء الحصا بوراثة الشم البهاليل الغرر
فلأخلعنّ القلب مني إن أبى ولأقلعنّ العين إن زاغ البصر

وها أنا قد ساعدني توفيق الله حتى وطئت بساط أمير المؤمنين شاكرا ما أنعم الله علينا بولي أمير المؤمنين محمود بن سبكتكين فإنه في رسمه كاسمه، والله نسأل أن يديم سلامة أمير المؤمنين، وأن يبلغه أمله في الأمير أبي الفضل ولي عهد المسلمين الغالب بالله ابن أمير المؤمنين، ويلحقه بسعادة آبائه الراشدين، وأسلافه الطيبين الطاهرين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه محمد وآله أجمعين.

قال: فأمر القادر بالله أمير المؤمنين أن تنسخ الخطبة في جملة أخواتها المسطورة المخزونة.

ولما أرجت منابر خراسان بذكر القادر بالله أمير المؤمنين على ما أوجبته طاعة السلطان يمين الدولة وأمين الملة لأمر الله تعالى في اقتفار محجته، واقتفاء خليفته وحجته، كاتبه بما رآه من الإفضاء إلى ابنه أبي الفضل بعهده في ولاية المسلمين من بعده، وتلقيبه بالغالب بالله، ورسم توفيته واجب حقه، وإلحاق ذكره على المنابر باسمه،

وطبع النقود على ذكر تلقيبه، فأوجب السلطان يمين الدولة وأمين الملة مطاوعته فيما أمر، ومتابعته في جميع ما رسم. فتقارن ذكراهما في الخطب، وترافق اسماهما على صفحات الفضة والذهب.

و سنعود إلى ذكر بهاء الدولة وضياء الملة من لدن استأثر الله بعضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع فناخسرو إلى أن أفضى الأمر إليه، واستقر الملك عليه، وفيما نطق به كتاب الصابي المعروف بـ(التاجي) من وقائع عضد الدولة مع بختيار إلى أن أظفره الله به، فقضى عليه بحد حسامه، وجرّعه كأس حمامه، واحتياله على أبي تغلب ناصره بعد انهزامه، إلى أن أمكنه التدبير عليه بابن الجراح - أحد المتغلّبين من الأعراب على حدود الشام- فقيّضه لا قتناصه بمبارّ أهداها إليه، وأطماع أكدها له، حتى اعتقله وقتله، وحمل إليه علاوته ما يغني عن تجديده ذكره. ولما مضى عضد الدولة لسبيله، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة عند اشتغال أخيه مؤيد الدولة بويه بمحاربة حسام الدولة أبي العباس تاش، وعميدها فائق في عساكر خراسان، اجتمع أبناء دولته على ابنه صمصام الدولة وشمس الملة، فبايعوه متآزرين، وتوافقوا على طاعته متظاهرين. وأتاه الطائع لله أمير المؤمنين في حرّاقة على ظهر دجلة يعزيه عن أبيه، وقد ثار عوام الناس نظّارة له، حتى إذا قرب منه برز إليه صمصام الدولة فجشّم وجهه رسم الطاعة وحق الخلافة، وقال له الطائع لله: نضّر الله وجه الماضي، وجعلك الخلف الباقي، وصيّر التعزية بعده لك لا بك، والخلف عليك لا منك، وقضي الحقوق لك لا منك، فأذرى على خديه دموع عينيه، وبادر إلى صعيد الأرض شكرا لما منّ به عليه، ثم انتصب به منصب أبيه، فأجرى الأمور على استقامة، وتدبرها بسياسة عامة.

وكان أخوه الأكبر أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة غائبا إلى مدينة كواشير من أرض كرمان، فلما بلغه نعي أبيه، كرّ راجعا إلى فارس، وقبض بها على نصر بن هارون النصراني وزير أبيه، واستوفى عليه حواصل أموالها، وبقايا أعمالها. وامتد إلى الأهواز فملكها على أخيه أبي الحسن أحمد بن عضد الدولة، وغلب على البصرة معها، وذلك في رجب سنة خمس وسبعين وثلثمائة، ثم استعد لقصد بغداد طلبا لمكان أبيه، واستضافة لما في يد أخيه إلى سائر ما يليه. وسار حتى إذا وافاها، تلقّاه صمصام الدولة بما أوجبه حق سنّه عليه إجلالا ومهابة، ومداراة ومقاربة، تفاديا من ضرر استيحاشه،

وعدوى مساءته، غير عالم بأن غمدا فردا لا يسع سيفين، ووترا واحدا لا يضم سهمين. فقرّبه أبو الفوارس ورفع محله، ثم خلعه وكحله، وأمر به إلى قلعة كيوستان من أرض عمان. واستولى على المملكة، ولقبّه الطائع لله بشرف الدولة وزين الملة، فبقي على جملته سنين، وفجئه حكم الله تعالى في جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلثمائة.

و قام شاهنشاه بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة مقامه، وتجرّد لضبط الأمور المائرة، وتلافي الأحوال الحائلة، وكفل بالملك كفالة خبير بالتجارب، بصير بأعقاب العواقب. وتمالأ الأتراك بفارس على صمصام الدولة، فأبرزوه من معتقله، وحمله غلامه المعروف بسعادة على عاتقه منحدرا به، فملك فارس وما والاها، وتتّبع أموالها فجباها. ثم تنكروا له من بعد، وقدّموا أبا علي بن أبي الفوارس، وعقدوا له الرئاسة عليهم، ولقبّوه بشمس الدولة وقمر الملة، وتجرّدوا للدفاع عنه والدعاء إليه.

فانتدب لمواقعتهم، إلى أن هزمهم أقبح هزيمة، وغنمهم أبرد غنيمة، فخنسوا إلى بغداد صاغرين خاسرين.

و تحرك بهاء الدولة وضياء الملة لقتال صمصام الدولة، فتناوشا الحرب وصالا ككعوب الرماح، ما بين المساء والصباح، حتى خربت البصرة، وتلاها في الخراب أكثر كور الأهواز.

وقد كان أولاد بختيار محتبسين في حصار بناحية فارس، فاستنزلهم طائفة من الأكراد الخسروية عن معتقلهم، مؤججين نار الفتنة باستنزالهم وفكّ عقالهم.

فناصبهم صمصام الدولة الحرب مستكفا شرهم، ومستدفعا بأسهم وضرّهم، فاختلفت بهم الوقائع بين تلك الفتن الثائرة، والإحن الفائرة، وكانت عقباها أن أجلت عنه قتيلا.

وتذمر بهاء الدولة للحادثة عليه، فأرصد الجناة بطائلته حتى شرّدهم كل مشرد، وطردهم كل مطرد، وألجأ أولاد بختيار إلى الجلاء عن تلك الناحية، وزعيمهم يومئذ سالار بن بختيار الملقب بنور الدولة. وكان من أمره أنه انتبذ عنها مدحورا مثبورا، فاضطرته الحال إلى خفارة التجار في تجاراتهم، وإجازتهم على مراصد القطع ببضاعاتهم، على خرج يستعين به من جهتهم على مؤن معاشه ورياشه. واتبعه بهاء الدولة بجيش واقعوه بكواشير فغلبوه، ووصلوا إليه فقتلوه. وحمل غلام منهم رأسه إلى

بهاء الدولة، فامتعض للرحم الدانية، واللحمة الحانية، من تشجعه على ملاقاته به، فأمر بالغلام فسلخ جلده من قرنه إلى قدمه عبرة لمن أقدم على ملك بسفك دمه.

و بعث بعميد الجيوش الملقب بالصاحب إلى بغداد لمراعاة تلك الأعمال، واستيفاء حقوق بيت المال، فاستدّت سيرته، واحتدّت في العدل بصيرته، وعمّ رفقه حجيج بيت الله الحرام بالمنائح العظام، فانطلقت بشكره ألسنة الخاص والعام، إلى أن قبضه الله إليه، فسدّ مكانه بوزير الوزراء زيادة في النظر للرعية، فأربى على عميد الجيوش في الإحسان إلى الكافة، إصلاحا لهم، ورفقا بهم، وطرحا عنهم. وصفت نواحي فارس وكرمان لبهاء الدولة مضافة إلى سائر أعماله. وقعدت الفتن القائمة عن سوقها في زمانه، فعمّ الأمن والسكون، وشمل الرفق والهدون، واستراح عباد الله مما كان يفدحهم من وطأة الجيوش، ويلحقهم من معرّة اختلاف السيوف.

وقد كان أبو علي بن إلياس قد ملك كرمان أيام عضد الدولة لآل سامان، وأقام بها مدة من الزمان، لا ينازعه فيها منازع، ولا يدافعه عنها مدافع. وكان حبس ابنه اليسع في بعض قلاع كرمان إشفاقا من معرته للوثة رآها في رأيه، واضطراب تبينه في وجوه شمائله وأنحائه، ولها عنه مدة من الزمان وهو يكابد بينها ضرا وبؤسا، وشدة وعبوسا، فاتفق أن أشرف سرب من نساء أبيه وجواريه عليه، فرثين لضيق مكانه، ودبّرن في وجه خلاصه، وعمدن إلى خمرهنّ فوصلن بعضها ببعض، وخلّصنه بها عن معتقله.

وتسامع أهل العسكر بخلاصه، وانحلال عقاله، فتجمعوا عليه، وانقطعوا بجملتهم إليه، ممالأة له على أبيه لجفوات نقموها منه.

وبلغ أبا علي خبر الحادثة، فأرسل إلى ذوي التحزّب والتألب باحثا عما دعاهم إليه، فأظهروا الضجر بمكانه، والتبرّم بطول زمانه، وساموه مفارقة كرمان ليستقر الأمر على ابنه اليسع بطاعتهم له، وتوخيهم موافقته. فعرك أبو علي قولهم بجنب المداراة والاحتمال في عاجل الحال، ثم جمع ما قدر عليه من صنوف الأموال، وكرّ عائدا إلى بخارى مخليا بين اليسع وبين تلك الولاية. وأقام ثقتيه بسوّيه بن مهدي وترمش الحاجب على خدمة اليسع وكفالة أمره، إذ كانت حداثته تقتضي استخلاف مثلهما في دهائهما وقوة رأيهما على حضانة أموره، وتبصيره الرشد في وجوه تدبيره.

و لما وصل أبو علي إلى بخارى، بولغ في تعهده، وإكرام مورده، وإحلاله من الإيثار والإكبار محل مثله، إلى أن توفي بها في شوال سنة ست وخمسين وثلثمائة.

فأما اليسع فإنه ولي كرمان، فحمى أطرافها، وجبى أموالها. وكان أخوه سليمان مقيما بسيرجان واليا عليها، فأغراه بسوّيه بن مهدي به، وأشار عليه بمعاجلته قبل انتظام شمله، واستمرار حبله. فكتب إليه يستدعيه لمهم لا يستغني عن مفاوضته فيه، فامتنع عن الإجابة بعلل اخترعها، ومعاذير تمحّلها. وضاق اليسع به ذرعا، ولم يجد من مناجزته بدّا، فنهض إليه محاربا حتى هزمه، وغنم ماله. فوقع سليمان إلى بخارى، وأطمع اليسع نزق شبابه في مغالبة عضد الدولة أبي شجاع على بعض حدود عمله، فكان مثله مثل العير طلب قرنين فضيّع الأذنين، وذاك أنه لما بلغ الحدّين بين كرمان وفارس أتاه صاحب طليعته بطائفة من المستأمنة عن عسكر عضد الدولة أبي شجاع، فأحسن إليهم، وصبّ الخلع عليهم، ثم هرب نفر منهم راجعين وراءهم، فارتاب اليسع برفقائهم، وظنّ أن وراء استئمانهم حيلة أو غيلة، فأوسعهم تنكيلا، وعمهم بالعقاب قطعا وتمثيلا.

و استأمن عنه إلى عضد الدولة جملة من رجاله، فحملهم وحباهم، ووصلهم ومنّاهم، فلما رأى أصحابه تباعد ما بين الأمرين، تألّبوا عليه، وتنمّروا له، وتحزّبوا عنه، ونسل من جملتهم صفقة واحدة ألف رجل من وجوه الديلم إلى معسكر عضد الدولة وهو بناحية اصطخر. وفسا الظّربان بين الآخرين فجعلوا يتسللون لواذا، ويتفرقون جميعا وأشتاتا، حتى انفضّ عنه عامة أهل عسكره، وبقي في خاصة غلمانه وحاشيته، فاضطر إلى معاودة كواشير، وأسرع منها بعياله، وبما خفّ عليه حمله من أثقاله وأمواله، نحو بخارى لا يلوي على أحد دون الإغذاذ في السير، وطيّ بساط الأرض بحوافر الخيل. فلما اتصل خبره بعضد الدولة، بادر على إثره إلى كواشير فملكها، واستصفى أموال آل إلياس بها، ثم استخلف عليها كورتكين بن جستان ورجع عنها إلى فارس. ولما ورد اليسع ناحية خوست من حدود قهستان، خلّف أثقاله وغلمانه بها، وركب الجمّازات نحو بخارى للاستنجاد وطلب الإمداد، فلما وافاها قرّب محله، ورعي له حقه، واستحضر مجلس الأنس تخصيصا بمزية الإكرام والأثرة، فلما قدر عليه سلطان

الراح لم يتمالك أن قال مستبطئا: لو عرفت قعود الهمم بآل سامان عن إغاثة الراجين لها، واللاجئين إليها لطلبت غير هذه الحضرة ملاذا ومعتصرا.

فخشن مسّ هذا المقال منه، وأمر به فنفي إلى خوارزم. وبلغ أبا علي بن سيمجور حاله ومقاله، فبعث إلى خوست بمن قبض على غلمانه وأمواله، فنقلهم وإياها إليه غنيمة خالصة عن أيدي الاعتراض والاشتراك.

وأصاب اليسع بخوارزم رمد أقلقه وأكمده، واستنفد وسعه وجلده، وحمله الضجر بالألم على أن فقأ عينه الرمدة بيده، فسالت على خده، وكان ذلك سبب هلاكه وحينه. ولم يطر من أعقاب الإلياسية بحدود كرمان بعده أحد. وازداد باع عضد الدولة طولا، وعزة وارتفاعا وشمولا، إلى أن ورثه بهاء الدولة وضياء الملة، فأجرى أمورها بمجاريها الموروثة في حفظ الأطراف، وبسط العدل والإنصاف.

و لما ملك السلطان يمين الدولة وأمين الملة خراسان، افتتح سجستان، و حصل بين ولايته وبين تلك الديار ذمار الجوار، فاتحه بهاء الدولة وضياء الملة بكتبه خاطبا لكريمة ودّه، على صداق قلبه المغمور بموالاته، المقصور على طلب مرضاته.

ووصل ذلك بهدايا ومبارّ لاقت برحب صدره، وعلوّ همّته وقدره، فأجابه السلطان يمين الدولة وأمين الملة إلى ما خطبه، وأوجب له مثل ما أوجبه، وأتحفه بما رهن الوداد، وأكّد الاتحاد، وقضى حقّ المكافأة وزاد. وتشوّفت الحال بينهما إلى زيادة عصمة تتحد بها البيوت والمرابع، وتشترك فيها الأرقاب والأباعد، فسفر مشايخ الدولتين في تشبيك اللحمة، وتوشيج أسباب القربة، إلى أن أتاح الله من ذلك ما عمّ القاصي والداني فائدته، وشمل الحاضر والبادي والطارئ والتانىء نفعه وعائدته.

ذكر وقعة ناراين

ونشط السلطان يمين الدولة وأمين الملة في سنة أربعمائة لغزوة في ديار الهند ينكأ بها قرح نكاياته فيها، تقرّبا إلى الله تعالى، واحتسابا للمثوبة من عنده عز وجل، فنهض نحوها يحثّ الخيول، ويخترق الحزون والسهول، إلى أن توسط ديار الهند، فاستباحها وأذل لقاحها، ونكس أصنامها، وعرض على السيوف أغتامها. وسار على هينته نحو مقصده، وأوقع بعظيم العلوج وقعة أفاء الله بها عليه أمواله، وأغنمه خيوله وأفياله، وحكّم فيهم سيوف أوليائه، يحسونهم بها بين كل سهب وفدفد، ويجزرونهم عند كل مهبط ومصعد، وردّه بهم إلى غزنة فيما حواه من تلك الغنائم الموفورة، سالمًا غانمًا، وافرًا ظاهرًا.

ولما رأى ملك الهند ما صبّ الله عليه وعلى أهل مملكته من سوط العذاب، بوقائع السلطان يمين الدولة وأمين الملة فيهم، ونكاياته في أقاصيهم وأدانيهم، وأيقن أنه لا قبل لهم بثقل وطأته، وخشونة جانبه، أرسل إليه أعيان أقاربه وقرابينه، ضارعا إليه في هدنة يقف فيها عند أمره، ويتسمّح بماله ووفره، ويتجرّد أوقات دعائه إياه لنصره، على أن يقود إليه بادئ الأمر خمسين فيلا يعدّ آحادها بأضعافها ثقل أجسام وخفة أقدام، ويحمل معها مالا عظيم الخطر، كثير القدر، بما يضاهيه من مبارّ تلك الديار، ومتاع تلك البقاع. وعلى أن يناوب كل عام بين أفناء عسكره في خدمة بابه بألفي رجل بادئين وعائدين، إلى إتاوة معلومة يلتزمها كل سنة سنّة يتمسّك بها من يرث مكانه، ويقوم في كفالة الملك مقامه، فأوجب السلطان إجابته إلى ملتمسه، لعز الإسلام بذلّ طاعته، وإعطائه الجزية عن يده. وبعث إليه من طالبه بتصحيح المال، وقود الأفيال. فنقد ما وعد، وقدّم الوفاء بما شرط، وبعث بمن ضمن تجهيزهم إلى بابه من خواصّ رجاله، على جملة الخدمة، وإقامة رسم الطاعة. فانعقدت تلك الهدنة، ودرّت تلك الإتاوة، وتتابعت القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند، في ضمان الأمان، وجوار الحيطة والإحسان.

ذكر غزوة غور

قد اتفق للسلطان يمين الدولة وأمين الملة فكر في جبال الغور، وتمرّد أهلها، وتمنّعهم على عطلهم عن حلية الدين، وسمة الإسلام، وحصولهم في المقلة من عين حوزته، والمركز من دائرة مملكته، وتأذّي المارة والسابلة بعيث أرصادهم، وعنت قطعهم وإفسادهم، لا ستطالتهم بمناعة جبالهم الشواهق، ومجال مسالكهم المتضايق، فأنف للدولة القاهرة من أن يخليها على غلق أقفالها، وشدة رتاجها، فصمّم العزم على تدويخ ديارهم، وتذليل رقابهم، وانتزاع نعرة الاستطالة من رؤوسهم، واستلال وحرة العصيان من صدورهم. وأجلب عليهم بخيله ورجله، معوّلا على صنع الله وفضله.

وقدّم أمامه والي هراة التونتاش الحاجب ووالي طوس أرسلان الجاذب، وسارا مقتحمين مضائق تلك المسالك، إلى أن أفضى بهما الدؤوب إلى مضيق قد غصّ بكماة الغورية ممن لفظتهم القرى القاصية، والمحال المتنائية، فتناوشوا الحرب تناوشا بطلت فيه العوامل، إلا الصوارم في الجماجم، والخناجر في الحناجر. وتصابر الفريقان على حرّ الكريهة حتى سالت نفوس، وطارت عن الهام رؤوس.

وبلغ السلطان خبر الفريقين، فلحقهم في خواص رجاله، وجعل يلجئهم إلى ما وراءهم شيئا فشيئا، ويملك عليهم ملاجئهم شعبا فشعبا، إلى أن فرّقهم في عطفات الجبال الشوامخ، وألحقهم بقلل الراسيات البواذخ، واستفسح المجال إلى عظيم الكفرة المعروف بابن سوري، فغزاه في عقر داره، وأحاط به من جوانب حصاره، وهي في قصبة تدعى آهنكران، وشد عليه الحرب، وبرز الرجل في قرابة عشرة آلاف رجل رجال، كأنما خلقت قلوبهم من حديد، وأكبادهم من جلاميد، يستأنسون بأهوال الوقائع استئناس الظماء بماء الشرائع، فصافوا عسكر السلطان مرعدين بالبطش والبأس، مبرقين بصوارم الأسياف. وجعلوا يهرّون في وجوههم هرير الكلاب أعياها الفرار، وأحرجتها الأحجار، فأمر السلطان بمداركة الشدّ عليهم على ما أوجبه حكم الاحتياط، إذ كانوا مستندين إلى معاقل وثيقة، ومعتصرين بخنادق عميقة، حتى إذا انتصف النهار على وقاحتهم في مغامسة الحرب، ومعامسة الطعن والضرب، أشار بتوليتهم الظهور على وجه الاستدراج والاغتيال، فاغترّوا بخدعة الانقلاب، وانفضّوا عن مواقفهم إلى فسحة الفضاء، لاغتنام فرصة الانهزام، فكّرت عليهم الخيول بضربات غنيت بذواتها عن

أخواتها، فلم ترتفع واحدة منها إلا عن دماغ منثور، ونياط مبتور. وصرع في تلك المعركة الواحدة رجال كهشيم المحتظر، أو أعجاز نخل منقعر. وملك الأسر عظيمهم المعروف بابن سوري بأقربيه وذويه، وسائر خدمه وحواشيه. وأفاء الله على السلطان ما اشتمل عليه حصاره من ذخائر الأموال والأسلحة التي اقتناها كابر عن كابر، وتوارثها كافر عن كافر.

وأمر السلطان بإقامة شعار الإسلام فيما افتتحه من تلك القلاع والرباع، فأفصحت بذكره منابرها، واشترك في عزّ دعوته باديها وحاضرها. ورجع بعد ذلك عن وجهه على جناح اليسر والنجاح، والظفر المتاح. وحين رأى ابن سوري حصوله في ذلّ إساره، واستباحة السلطان ودائع حصاره، تبرّم بحياته، واستراح إلى برد وفاته، فامتصّ سمّا كان أودعه فصّ خاتمه، فجاد للوقت بنفسه، خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ.

obeikandl.com

ذكر القحط الواقع بنيسابور في سنة إحدى وأربعمائة

وقع القحط بنيسابور خصوصا، وفي سائر بلاد خراسان عموما، فهلك بنيسابور وأطرافها دون غيرها من الناس مائة ألف أو يزيدون. وكم دفن منهم بأطمارهم لضيق الأكفان بهم، وعجز غسلة الأموات عنهم. كان الناس بين غلام وشاب، وكهل وشيخ، وفتاة وعجوز، يتداعون الخبز الخبز، ويذوبون على أنفسهم حتى تغور عيونهم، وتجب للموت جنوبهم، ورعوا نبات الأرض حتى استحكم اليأس الناس عن الزروع، وانقطعت الأطماع عن الريوع. وضاق بهم الأمر، فجعلوا يتتبعون رمام العظام على رؤوس الكناسات تعللا بها. ومهما ذبح قصاب ذبيحة اجتمع عليه الفوج بعد الفوج يتقاسمون نجيعها بالكيزان والخزف تسكينا لحرّة الجوع، واجتزاء به عن القوت، ولم ينل منه أحد إلا سقط لحينه، وجاد عن كثب بنفسه. وعهدي بهم يتتبعون سقاطات حبّ الشعير عن الأرواث، وهيهات. إن الشعير لأعيا الأنام فكيف البهائم والأنعام؟! ثم تراقى الأمر إلى أن أكلت الأم ولدها، والأخ أخاه، والزوج زوجته. وظل بعضهم يختلس بعضا من شوارع الطرق إلى الخرابات، فيطبخ منه ما شاء من الپاچات.

وحرّمت الأسمان على الناس لكثرة ما صهر عليها من لحوم البشر، فبيع في الأسواق.

وقبض على أقوام بلا عدد كانوا يغتالون السابلة، فيصهرونهم على هذه الجملة، ووجد في دورهم ما يغمر العدّ من رؤوس الناس قد أكلت لحومهم، وصهرت شحومهم. فأما الكلاب والسنانير فلم يبق منها إلا العدد اليسير. وهاب أوساط الناس وأرباب الحرف أن يخترقوا وقت العشاء محلة نائية عن واسطة البلد، إلا في عديد، وسلاح حديد.

وذكر أن فقيها وجيها من أصحاب الحديث دخل على الإمام أبي الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصّعلوكي فسأله عن تطاول عهده به، فقال: ليأخذ الإمام عني أحدوثة عجيبة ردّ الله تعالى بها عليّ روحي، فضلا منه جسيما، وصنعا كريما، وذلك إني جعلت أمرّ ببعض العشيات وحيدا في شارع- أشار إليه- فلم يرعني إلا وتر صار في عنقي، وجذبت به جذبة ضيّقت علي مختنقي، فبينا أهمّ بمواتاة الجاذب، ومداناته للسلامة على ضيق التخنيق، إذ وثبت إلي من بعض تلك الأوبات امرأة، فضربت أنثيي

بركبتها ضربة سقطت منها مغشيا علي، فلم أشعر بعدها بشيء من مصارف أموري، إلى أن أفقت عن الحسّ ببرد ماء رشّ على وجهي وترائبي، فنظرت إلى قوم أجانب يخادعونني عمّا دهاني، ويكاتمونني صورة ما عراني، فإذا هم ساعة وجبتي لجنبي، أدركوني عائدين إلى منازلهم، فهرب منهم من أشفى على قتلي، واستباحة دمي، وتركني برمقي، وخلى الوتر في عنقي، فصرت ساعة إلى أن استوفيت الإقامة، واستعدت القوة والطاقة، وعدت إلى المنزل، وسقطت من هول ذلك المصرع على الفراش عشرين يوما مدهوشا مبهوتا، وحرضا مسبوتا إلى أن منّ الله علي بأوائل الإقبال، وزوال أكثر ما مسّني من ألم الاعتلال، فبكرت يوم أحسست بالخفّة إلى المسجد لإقامة الفرض، وصعدت المئذنة على الرسم، فلم أستتم التكبير حتى اختطف عمامتي من رأسي وهق أراد صاحبه به رقبتي فأخطأها لما أراد الله من إنساء أجلي، واستبقاء مهلي، فعدلت عن الأذان إلى الصياح بطلب الأمان، وجعلت لله علي بعد ذلك أن لا أخرج مدة هذه الفتنة من داري إلا والشمس بيضاء نقيّة، وألا أرجع إليها إلا وفي النهار بقيّة. فهذه هي التي ثبطتني عن الخدمة، وأقعدتني عن الرسم في مشاهدة الجملة. فقضى الحاضرون عجبا من تلك الداهية، وسألوا الله تعالى حسن السلامة والعافية.

وحكي عن الأستاذ أبي سعيد عبد الملك بن عثمان الواعظ، أحد الصالحين من عباد الله الموقنين، والساعين في مصالح المسلمين أنه نقل إلى دار كان يسكنها المرضى والزمنى من الفقراء وأبناء السبيل، في يوم واحد من أيام هذه السنة أربعمائة ميت عن برح الجوع والمخمصة، على أن يوعز بتكفينهم ودفنهم، فأتاه خبّازه الذي كان يقيم جرايات المذكورين من جهته، وهو في حيرته يذكر أنه قد بقي في هذا اليوم بعينه مما كسد على البيع أربعمائة منّ خبزا، فسبحان من يقضي على من يشاء بالفناء مع إمكان الأقوات، ووجود الكفايات.

وقد أكثر الناس في ذكر ذلك الغلاء والبلاء، فمنه قول أبي منصور الزاوهي الكاتب:

قد أصبح الناس في غلاء ... وفي بلاء تداولوه

من يلزم البيت يؤد جوعا ... أو يشهد الناس يأكلوه

ولأبي محمد العبدلكاني الزوزني(١):

لا تخـــرجنّ مـــن البيـــوت لحاجـــة أو غيـــر حاجـــة

والبـــاب أغلقـــه عليـــك موثقًـــا منـــه رتاجـــه

لا يقتنصـــك الجـــائعون فيطبخونـــك شـــورباجه

وأمر السلطان يمين الدولة وأمين الملة بالكتب إلى عمّاله بصبّ الأموال على الفقراء والمساكين، فاستبقى الله بها مهجات قوم قد أشرفت على الهلاك، وافتكّهم من حنك الاحتناك، وبقيت تلك السنة على حالها إلى أن أدركت غلات سنة اثنتين وأربعمائة، فمنّ الله بإزالة تلك الشدة، وإطفاء تلك النار المتّقدة، وتدارك عباده بعد استحكام اليأس منهم بالغيوث الهامية، والريوع الزاكية النامية، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد العبدلكاني أديب شاعر، ظريف الجملة، خفيف روح الشعر، كثير الملح والظرف. [انظر: يتيمة الدهر ١٣٢/٢].